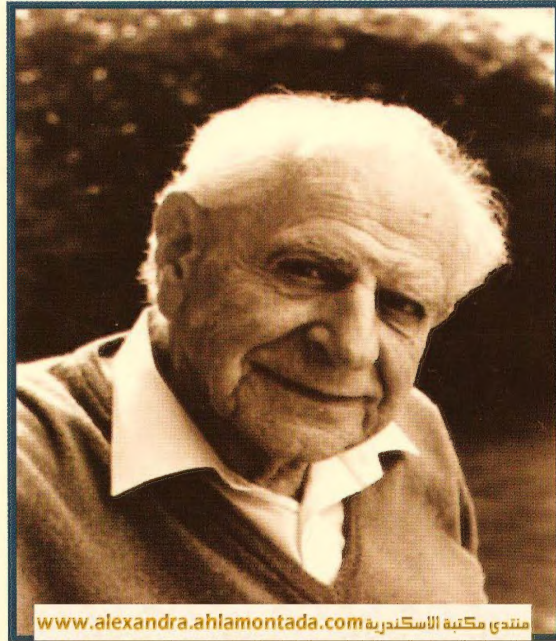




درس القرن العشرين



كارل بوبر

ترجمة:

الزواوي بغورة

لخضر مذبوح

١٥٢٢-١

درس القرن العشرين

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي

LA LEÇON DE CE SIÈCLE

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

ANATOLIA

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © ANATOLIA

All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

درس القرن العشرين

كارل بوبر

ترجمة وتقديم وتعليق

د. الزواوي بغوره

بالاشتراك مع د. لخضر مذبوح



منشورات الاختلاف

الدار العربية للعلوم ناشرون
ش.م.ل.
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 3-419-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف

149 شارع حسبية بن بو علي

الجزائر العاصمة - الجزائر

e - mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

للتبضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

المحتويات

مقدمة.....7

القسم الأول

الحوار

اولا	التعايش السلمي، الحرب واللقاء مع الشيوعيين19
ثانيا	الانتقادات الأساسية للماركسية.....29
ثالثا	سنة 1962، كروتشوف وانحطاط السوفييات.....35
رابعا	الأسئلة السياسية على جدول الأعمال، دولة القانون والأطفال...51
خامسا	لنرفض التاريخانية كي يصبح المستقبل مفتوحا.....69

القسم الثاني

الدراسات

سادسا	ملاحظات حول الدولة الديمقراطية بين النظرية والتطبيق81
سابعا	الحرية والمسؤولية الفكرية.....103

مقدمة

كارل بوبر في السياقين العربي والغربي(*)

لا جدال في ان الفلسفة عالمية وإنسانية بطبيعتها وخلاصة للعقل والجهود البشريين، ليس لها من سلطة غير سلطة العقل والبرهان، فكل ما هو عقلي هو فلسفي وإنساني وعالمي ومحلي في الوقت نفسه، لان الفلسفة تقول بالمظهر والماهية بالشكل والمحتوى بالعقل وتظهراته. ولما كانت كذلك، فإنها لا تؤمن بالحدود والحواجز والخصوصيات، لأنها بحث في الحقيقة ولشدان للمعنى وتأسيس للتواصل والحوار واللقاء بين الحضارات والثقافات، مهما اختلفت الأديان والعقائد والأعراف والنظم والاتجاهات والنحل والملل والألسن واللغات. من هنا سعت الفلسفة قديما وحديثا للتغلب على عقبة اللغة من خلال الترجمة، وكانت بذلك تجسيدا لنسبة إنسانية مبكرة. ولقد استعان فلاسفتنا القدامى، على مترجمين وشرائح، قصد معرفة النصوص الفلسفية، وأصناف المناهج والطرق المؤدية الى الحقيقة. من هذا المنطلق، عمدنا إلى ترجمة كتاب كارل بوبر: درس القرن العشرين، الذي يعد بحق خلاصة لفكره السياسي والأخلاقي. ويتكون هذا الكتاب، من حوار مطول ومقالتين متصلتين بموضوع الحوار، تعالج الأولى مسألة الديمقراطية، وتبين الثانية مسؤولية ودور المثقف.

(*) بقلم د. الزواوي بغوره.

ومن دون شك، فإن نهاية القرن العشرين قد حمل معه الكثير من الأحداث والقضايا، لعل أهمها نهاية الاستعمار وظهور الأمم الجديدة على مسرح التاريخ وقيام حربين عالميتين وسقوط أكبر إمبراطورية في العصر الحديث، في ظرف زمن قياسي لم تشهده البشرية من قبل، مع ما تبعه من تحولات اقتصادية واجتماعية، بالإضافة الى التطورات المذهلة في الصناعة والتكنولوجية والعلم والمعرفة البشرية على العموم.

ولعل الأهم من هذا كله، ليس تحليل ما جرى وما حدث ولكن الوقوف على الآفاق ومحاولة استشراف المستقبل، من خلال التجربة الماضية والبوادر القائمة في الحاضر. وهو الأمر الذي دفعنا إلى ترجمة هذا الكتاب: درس القرن العشرين، للفيلسوف المعاصر كارل بوبر^(*)، الذي كان سابقا إلى عديد الأفكار التي أكدها الواقع وهو ما يزال على قيد الحياة.

- في السياق العربي:

ولعله من باب أولى، ان نسجل نقطة تاريخية تضعنا في سياق

(*) ولد الفيلسوف كارل بوبر بفينا سنة 1902، من أبوين ينحدران من أصول يهودية، اعتنقا المسيحية البروتستنتية اللوثرية. في سنة 1919 انخرط في جمعية مدرسة الطلبة الاشتراكيين الشيوعيين، لكنه غادرها بعد شهور قليلة. نال شهادة الدكتوراه سنة 1928 بإشراف كارل بوهلر. في سنة 1934 نشر كتابه الرئيسي الذي حقق له شهرة كبيرة وهو: منطق الكشف العلمي. وفي سنة 1937 غادر النمسا باتجاه نيوزلندا وذلك تحت ضغط النازية. وفي سنة 1944 نشر كتابه السياسي الهام: المجتمع المفتوح وأعداؤه. عين سنة 1947 أستاذا للمنطق ومناهج العلم في كلية لندن للاقتصاد. ومنحته ملكة بريطانيا سنة 1965 لقب "السير". نشر سنة 1972 كتابه "المعرفة الموضوعية". وظهرت الطبعة الأولى لأجزاء ضخمة منطق الكشف العلمي سنة 1982، ومنها: الواقعية وهدف العلم، الكون المفتوح: دفاع عن الاحتمية، ونظرية الكوانتا والاختلاف في الفيزياء. نشر سنة 1993، درس هذا القرن، او درس القرن العشرين، وتوفي في 17 سبتمبر 1994.

الفكر العربي المعاصر، وهي انه على الرغم من انتشار التيار الوضعي في الفكر العربي المعاصر وخاصة ما قدمه الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود، إلا أن فلسفة كارل بوبر لم تعرف انتشارا كافيا، ولعل السبب في ذلك انه كان فيلسوفا ناقدا للوضعية المنطقية، ولانه لم يتوقف عند التحليلات المنطقية للعلم، بل تعدى ذلك الى المسائل التاريخية والاجتماعية والسياسية بشكل خاص. وربما نتيجة لمواقفه وأرائه السياسية وبخاصة نقده للماركسية على وجه الخصوص، لم تنتشر افكاره، خاصة إذا عرفنا أن الماركسية هي من التيارات التي عرفت انتشارا واسعا في العالم العربي وخاصة في الخمسينيات والستينيات وحتى السبعينيات، وهي الفترة التي نشر فيها كارل بوبر آراؤه السياسية والتاريخية وخاصة كتابيه "المجتمع المفتوح وأعداؤه" و"بؤس التاريخانية".

صحيح ان هذا الكتاب الأخير قد تمت ترجمته الى العربية في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، وتحديدًا في سنة 1959، ولكنه بقي في طي النسيان، وقد يكون مصير هذه الترجمة هو الذي حثنا على ترجمة هذه الحوارات والمقالات السياسية، فالتتبع للتيار الوضعي الذي مثله المفكر الكبير الدكتور زكي نجيب محمود ومجموعة كبيرة من تلامذته، يرى ان هذا المفكر لم يلتفت إلى أهمية كارل بوبر وإلى أهمية نظرياته السياسية ونقده التاريخي للماركسية، رغم انه قد حاول تقديم بعض الملاحظات حول الماركسية من دون ان يستفيد من انتقادات بوبر في هذا المجال⁽¹⁾.

وقد يتساءل القارئ عن عدم اهتمام الدكتور زكي نجيب محمود بالقراءات النقدية للوضعية وبخاصة تلك القراءات التي تمت من

(1) انظر على سبيل المثال: في حياتنا العقلية، دار الشروق، 1981، الفصل الخاص بـ: الماركسية منهجا.

قبل ما بعد الوضعية، ويتساءل أكثر عن قدرة هذا المفكر العربي على النقد الذاتي عندما تعلق الأمر بمشاكل الفكر العربي مثلما يظهر ذلك جليا في كتابيه "تجديد الفكر العربي" و"المعقول واللامعقول في التراث العربي" وبقائه ضمن النظرة الوضعية المنطقية على مستوى النظرية الفلسفية، وأنه لمن المهم طرح مسألة حدود النقد الذاتي الذي مارسه مفكر من وزن زكي نجيب محمود، وإن يسأل إن كان ذلك النقد عملية معرفية أم محاولة للتكيف والتلاؤم والاستجابة لمستجدات ظرفية أو مرحلية، خاصة إذا ما تتبعنا المسار النقدي لهذا المفكر الذي أغنى المكتبة الفلسفية العربية وادخل طريقة جديدة في التفكير الفلسفي العربي!

إننا بطرحنا لهذه الأسئلة لا نرغب في متابعة المسار الفكري الذي اتخذته الوضعية وما بعد الوضعية في العالم العربي، بقدر ما نريد أن نتساءل عن مدى معرفتنا بالثقافة الغربية ومدى قدرتنا على تمثيل الفكر الغربي الذي يشكل إحدى المرجعيات الأساسية للفكر العربي المعاصر⁽¹⁾. ولماذا نجد - وتقريبا في كل الحالات وفي كل الاتجاهات - انتقائية في الاختيار وثبات على المعطيات الأولية وتوقف على متابعة التجديد الذي يحصل في الفكر الغربي، ولماذا الفكر العربي المعاصر والمفكر العربي المعاصر يتوقف عن متابعة التطورات والتغيرات والتحولات ما أن يعلن انتماءه ويشكل قناعاته الأولية، ولماذا لا يعمل على تقديم فرضيات في البحث وأطروحات قابلة للنقاش والتطوير والتحسين؟ إن هذه الأسئلة هي التي نهمنا أكثر من متابعة المسار الفكري للوضعية وما بعد الوضعية في الفكر العربي.

(1) الزواوي بغوره، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت - لبنان، 2001.

وفي هذا السياق فإننا نلاحظ، وبناء على ما استطعنا الاطلاع عليه، أن آراء وأفكار كارل بوبر السياسية لم تعرف انتشارا ودراسة وبحثا بالرغم من أن أفكاره العلمية والمنطقية والمنهجية قد عرفت طريقها الى المكتبة العربية سواء عن طريق الترجمة او البحث الأكاديمي⁽¹⁾. فهل كان ذلك اختيارا ام انتقائية، ام انها استجابة ناتجة عن ظروف وضغوط سياسية واجتماعية واقتصادية؟ فكيف نفهم، انه في الوقت الذي بقي فيه فكر بوبر السياسي محدود التداول في أوروبا وخاصة في فرنسا وإيطاليا⁽²⁾، كان الأمر كذلك في الوطن العربي؟ ألا

(1) المقصود بتلك الأعمال، الترجمات والدراسات الآتية:

- كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، ترجمة د. عبد الحميد صبرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1959. أعيد نشره بعنوان: يؤس الإيديولوجية، نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، دار الساقى، بيروت، لبنان، 1992.
 - كارل بوبر، منطق الكشف العلمي، ترجمة د. ماهر عبد القادر محمد علي، دار المعرفة الجامعية، 1987. ملاحظة: ترجم الكاتب، الفصل الاول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس. أي الجزء الاول من الكتاب الذي يتكون من منطق الكشف العلمي وضميمة منطق الكشف العلمي الذي يتكون بدوره من ثلاثة اجزاء هي: المذهب الواقعي وهدف العلم، العالم المفتوح، ونظرية الكوانتا. ولقد تم مؤخرا (2006) ترجمة كتاب منطق الكشف العلمي من قبل محمد البغدادي وصدر عن المنظمة العربية للترجمة.
 - كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل، احمد مستجير، سلسلة الف كتاب، 1997.
 - كارل بوبر، اسطورة الاطار، ترجمة يحيى طريف الخولي، عالم المعرفة 292، الكويت 2003.
- اما الدراسات فهي:

- يحيى طريف الخولي، فلسفة كارل بوبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989.
- محمد محمد قاسم، نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، 1986.
- كامل محمد عويطة، كارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية، دار الكتاب اللبناني، 1995. (طبعها ليست قائمة ثمانية لأعمال الفيلسوف او الدراسات المنجزة حوله، وذلك نظرا لغياب بنك للمعلومات العربية في هذا المجال).

(2) نشر كتاب "المجتمع المفتوح وأعداؤه" سنة 1945، ولم تظهر طبعته الفرنسية إلا سنة 1979.

يعود الأمر إلى أن الأفكار التاريخية التي كانت مهيمنة على الضفة الشمالية للبحر المتوسط في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، هي نفس الأفكار المهيمنة في العالم العربي. قد يكون هذا أحد الأسباب التي تبين وتوضح غياب النص السياسي لكارل بوبر وخاصة كتابه "المجتمع المفتوح وأعداؤه"⁽¹⁾، الذي ترجم جزأه الأول ونتمنى الاطلاع على الجزء الثاني، كما ترجمت بعض مقالاته السياسية، ونتمنى ان تنجز حول فلسفته السياسية دراسات وبحوث.

- بوبر في السياق الغربي:

ان الذي دفعنا إلى ترجمة هذا الكتاب هو بلا شك حجم القضايا التي طرحها بوبر ووجهة نظره في معالجتها، وهي قضايا على درجة كبيرة من الأهمية وبخاصة ما تعلق بالعنف ودولة القانون والديمقراطية والأقليات... الخ. لقد تم طرح هذه القضايا الأساسية من زاوية السيرة الذاتية، لذلك فهي بقدر ما تعكس اهتمام الذات ومشاكلها، فإنها تعكس في الوقت نفسه تفاعل الذات مع واقعها وتاريخها وأكثر من هذا تجاوز الذات لشرطها الوجودي والمعرفي، وهو ما مكنها من الإبداع والاكتشاف رغم كل ملابسات الواقع ومعوقاته وتعقيداته. وهكذا فان البحث عن الحقيقة والصدق في البحث عنها والإيمان بها والاقناع بها والتأكد الدائم منها، يؤدي بالضرورة إلى نتائج صحيحة، وما ينطبق على بوبر وعلى مساره العلمي والسياسي معاً، ذلك المسار الذي تلاحم فيه النضال السياسي بالبحث العلمي وإرادة الكشف على الحقيقة مع أخلاقيات علمية وفلسفية رفيعة.

(1) ترجم مؤخرًا الجزء الأول من الكتاب من قبل السيد نفاذي.

لقد كان بوبر خصما كبيرا لماركس والشيوعية، ولكل الذين يزعمون تأييد مشروع سياسي على أساس معرفة قوانين الضرورة التاريخية. إنه المنظر للمجتمع المفتوح، وبالنسبة له، فإن أحداث 1989 و1991، حققت صحة انتقاداته الكبيرة للماركسية... لقد بدأ صياغتها في سن السابعة عشرة، بعد أن فتنته الإيديولوجية الشيوعية لفترة قصيرة، خصوصا من خلال النزعة السلمية للثوريين البلاشفة، وأوقعته في فخها "فخ الفأر" "piège à rat"، كما قال⁽¹⁾.

وعندما سأله المحاور الايطالي، عن كيفية صياغته مبكرا لقناعات واضحة جدا، حول الخطأ الملازم للنسق الماركسي، وما هو الموقف الذي تبناه تجاه الناس، وخصوصا المفكرين الذين هم على قناعة بالنظرية الماركسية، وكيف انه لم ينجر إلى قدرية معينة او إلى نوع من الكبت. خلص المحاور الى فكرة مؤداها: انه لم ينتظر، على ضفة النهر، حتى تمر أمامه جثث أعدائه. لا شيء من هذه الصورة ينطبق على كارل بوبر، لا الجثث لأنه يتخذ مبدأ "اللاعنف" كأساس من أسس الحضارة، ولا الأعداء، لأن التقسيمات الثنائية للتاريخ والسياسة إلى معسكرين عدوين هي واحدة من المآخذ التي يؤاخذ بها الماركسية. ولا النهر، لأنه بالنسبة لبوبر، تمثيل التاريخ بمجرى مائي، نعرف منبعه ومصبه، كان سببا لعدد كبير من الجرائم "إن الوقت الحاضر هو الوقت الذي ينتهي فيه التاريخ، ونحن لسنا قادرين على رؤية التاريخ، باعتقادنا أن لنا القدرة على التنبؤ بتياريه، ولا نستطيع كذلك، أن نقول: "إنني عرفت دائما أن النهر سيمر من هنا".

(1) K. Popper, la quête inachevée, traduction française de Renée Bouvéresse, Paris, Calmant Lévy, 1981.

وفكرة المجتمع تتعلق دائما بمستقبل مفتوح. لا شك اننا نتعلم من الماضي، لكن لاشيء يسمح لنا بإسقاطه على المستقبل للتنبؤ بما سيحدث. إن الزعم بمعرفة مسار مستقبل التاريخ، ينزع كل مسؤولية أخلاقية عن الحاضر، ويحول الناس إلى مجرد منفذين لمصير سيتحقق، مهما كان الحال. ومن وجهة النظر المعادية للتاريخانية الراديكالية لبوبر فإن فكرة "معنى التاريخ" وفكرة "وجهة" مسار القضايا أو الشؤون الإنسانية هي "بلاهة خطيرة"، لأنها تؤدي إلى إعطاء المشروعية للعنف والاعتباط، وهو ما يمكن أن يعرض الناس للسوء.

فكيف نفسر الانهيار والسقوط؟ لقد بدء من النقطة الأضعف، من "البحر"، - وان كانت أسبابه البعيدة قد تم تحليلها في كتابيه "المجتمع المفتوح وأعداؤه" و"بؤس التاريخانية" - وكانت نتائجه كبيرة على النظرية السياسية المعاصرة، ولعل أكبر مشكلة تواجهنا هي ليس تحليل ما جرى بقدر الإجابة على سؤال كيف العمل على إقامة بناء جديد؟

ان وجهة نظر بوبر تتلخص في الآتي: ان البناء الجديد لا يقوم على اقتصاد السوق، ولكن على دولة القانون والعدالة. لذا يكسب القضاء وتكوين القضاة أهمية بالغة في تصوره. فكيف يتم تنظيم مجتمع ما بعد انهيار الاشتراكية - وهو سؤال تتقاسمه العديد من البلدان العربية التي اعتمدت التخطيط وإدارة الدولة للاقتصاد - ومنها بطبيعة الحال الجزائر التي ما تزال تتخبط في سلسلة الإصلاحات والإصلاحات المضادة - يجيب بوبر بضرورة الحفاظ على التوازن الصعب بين حرية السوق وتدخل الدولة، مع تفضيل لتدخل مناسب للدولة في الآليات الاقتصادية، او كما قال (لا وجود للاقتصاد من دون تدخل للدولة).

وأما عن دور اليمين واليسار في العمل السياسي، فانه يقدم جملة من الأولويات المشتركة التي تتطلب تعاون الجميع، وهي: السلم

والتربية على اللاعنف والتحكم في النمو الديموغرافي. لا تعتبر هذه الأولويات يمينية او يسارية، وانما هي قضايا مشتركة تفرض تعاون الجميع، مثلها مثل مشاكل البيئة والمحيط. يجب الحد من النمو الديموغرافي، وليس الحد من التكنولوجيا والصناعة، لاننا نستطيع بالعلوم الطبيعية والتكنولوجيا، حماية البيئة والمحيط وليس العكس. كما ان التربية على اللاعنف تفرض الرقابة على وسائل الإعلام، مهما كنا محافظين او ليبراليين، يمينيين او يساريين فلا حرية من دون مسؤولية، ولا يجب ان نربي الشباب وخاصة الأطفال على العنف، وان دولة القانون تقتضي إقصاء العنف، بل أكثر من هذا، ان تعريف دولة القانون لا يكون من دون القضاء على العنف. او كما قال (دولة القانون هي الدولة المناهضة للعنف).

وحول البديل السياسي الذي يحمل هذه الأولويات، ويكون خارج ثنائية اليمين واليسار، يجيب بوبر بقوله: انه النموذج الديمقراطي حيث يجب الخروج من التمثيل البرلماني على مستوى الأحزاب الى تمثيل المواطنين، كما يجب ان تقوم الديمقراطية على الحرية الثقافية للناس واحترام لغاتهم وأديانهم وتقاليدهم، من هنا وجب على الدولة الديمقراطية حماية الأقليات والتعاون مع الأديان رغم الطابع العلماني للديمقراطية، شريطة ان نستبعد كل أشكال التطرف والتعصب او الأصولية لأنها خطر على الديمقراطية.

لا تعني الديمقراطية حكم الشعب كما هو رائج، إن الديمقراطية هي القدرة على إقالة الحكومات والقدرة على منع قيام طاغية باسم الشعب او أغلبية مهما كانت. فليست الديمقراطية حكم الشعب، ولكنها منع انعدام الحرية وتجنب ظهور طاغية او ديكتاتور باسم الأغلبية او باسم الشعب. تقتضي الديمقراطية القدرة على إقالة الحكومات

والدفاع على المعوزين والمعاقين وخصوصا الأطفال وحمايتهم من عنف وجرائم الكبار، ونقد النزعة التاريخية وخطر البحث عن معنى التاريخ، ودولة الحد الأدنى وعلاقتها بالحرية ومسؤولية المثقف ودوره في المجتمع، ومسئوليته في حفظ السلام والدفاع عن الحقيقة الموضوعية والحكمة والأمل في مستقبل مفتوح. مما يؤكد أن كارل بوبر ينتمي إلى ما يمكن الاصطلاح عليه بالليبرالية المحافظة، التي ترى ضرورة تدخل معين للدولة، سواء في الشأن الاقتصادي أو الإعلامي أو غيرهما.

ومع ان الفيلسوف، قد عالج أهم الأفكار السياسية المعاصرة، إلا انه تجنب الدخول في المناقشات التي أثارها فلاسفة السياسة وبخاصة أفكار "راولس" و"هابرماس" حول العدالة، واكتفى بتقاسم مقترحات عملية. كما ان توجهه الليبرالي المحافظ، قد دفعه إلى الدفاع عن النظم السياسية الغربية وبخاصة النظام السياسي الأمريكي، الذي حوله إلى نموذج سياسي مثالي، لم يتردد في الدفاع عنه ليس فقط ضد أعدائه في القطب الاشتراكي، ولكن كذلك ضد خصومه داخل المجتمع الرأسمالي نفسه، من هنا فان قراءة نص كارل بوبر، تستلزم استحضار السياق الثقافي والسياسي المتمثل في الحرب الباردة وما فرضته من التزامات ورهانات.

هذا ونشير في الختام، إلا أننا قد أجرينا في هذه الطبعة الجديدة لهذا الكتاب، عديد التصويبات والتصحيحات المطبعية والإملائية، وأضفنا لها مجموعة هامة من التعليقات المتصلة بالأعلام وبعض المصطلحات، وذلك بغرض تيسير فهم السياق الثقافي الذي ظهر فيه النص. والله ولي التوفيق.

الكويت في يوم 2008/6/14

القسم الأول

الحوار

النزعة السلمية، الحرب، واللقاء بالشيوعية(*)

سؤال: أعتقد أن هذه المحاور، يجب أن تبدأ بالمهم: نقدكم لماركس، الذي اكتسب شكلا فائيا في أعمالكم السياسية، وخاصة في "المجتمع المفتوح وأعداؤه". هل تستطيعون أن تفسروا لنا متى وكيف صممت العنصر الرئيسي لهذا النقد، متى وكيف اقتنعتم بضرورة هذا الهجوم ضد "النبوءات الخاطئة" من أفلاطون إلى ماركس مروراً بهيغل، والذي نظمتموه بطريقة منهجية في هذا الكتاب الصادر سنة 1945؟

جواب: هذا السؤال يعيدني إلى زمن بعيد وإلى يوليو 1919، وقتها لم أبلغ بعدها سن السابعة عشرة، طبعاً لم يكن لدي بعد الرأي الذي دعمته فيما بعد في "المجتمع المفتوح وأعداؤه"، لكن مع ذلك، قبل عيد ميلادي السابع عشر في جويلية 1919 بالتحديد، رأيت من الضروري القيام بنقد للماركسية، وإعادة النظر في موقفي تجاه هذه النظرية. وهكذا بعد فترة وجيزة بعدها، في فيفري 1920 تبين بشكل كبير، الموقف الذي طوّره طيلة حياتي. ترون إذن أنه ليس وليد الأمس.

(*) ترجمة د. لخضر مذبوح.

وهناك قلة اليوم من الذين يستطيعون تذكر وقائع هذه الحقبة. إنها تقريبا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

سؤال: كيف كان موقفكم من موضوع الحرب؟

جواب: لقد كنت محبا للسلام، في وقت كنت فيه تقريبا طفلا، قبل اندلاع الحرب حتى، والذي كانا من المحبين للسلام، وكان في مكتبة ابي كتباً ضد الحرب، لأنه كان خصما عنيدا للنزعة العسكرية النمساوية. عندما اندلعت الحرب انتابني الخوف، ونبهني ناقوس خطر رؤية كثير من الناس من حولي كانوا أصدقاء لعائلي، قد أخذوا منعرجا بدرجة انحراف مئة وثمانون درجة، وأصبحوا أنصارا للحرب. يوم عيد ميلادي، أرسل لي والدي رسالة من فيينا (كنا في عطلة)، شرح لي فيها، أنه لا يستطيع الالتحاق بنا لأنه "لسوء الحظ - كما قال - هناك الحرب"، والطريف أن هذه الرسالة كتبت عشية عيد ميلادي، والحرب اندلعت فقط - نعم اعتقد جيدا أن هذا ما حدث - في نفس يوم عيد ميلادي. يعني هذا أنه كان متأكدا ساعات قليلة من قبل، أن الحرب وشيكة وبعد فترة وجيزة من الزمان، التحقت بمدرستي في فيينا، التي كان فيها الجميع يؤيدون الحرب.

سؤال: إذن أنتم أيضا قد تأثرتم بهذا المناخ؟

جواب: لم أكن علم الإحساس كلية، لقد أثر فيّ بالطبع بعض الشيء، لكن ليس إلى درجة يحملني فيها إلى الأمل، بأننا نحن - الإمبراطوريات الوسطى - سنربحها طبعاً. على الرغم أنه، وخلافا للعديد من الآخرين، لم تكن في ذهني فكرة انتصار حقيقي.

سؤال: هل أنتم متأكدون من تذكر أفكاركم وقتذاك حول الحرب؟

جواب: كل هذا أعرفه، لأنه في تلك الحقبة كتبت قصيدة، أتذكر بعضاً من أبياتها. قصيدة تسمى "الاحتفال بالسلام". لقد كتبت أقول أن كل الأعداء سيعودون إلى ديارهم، ونحن سيكون لنا السلام، لكن لا شيء في هذه القصيدة يمثل السلام كشيء حماسي بالنسبة لنا. وأعرف أيضاً أنني كتبت هذه القصيدة في شهر أكتوبر 1914، وبسرعة وفي بداية السنة الموالية، أحسست بنفسى محرجاً، حيث بلغ بي الاعتقاد درجة التسليم بفكرة النصر، وفكرة أن الأعداء سيعودون إلى ديارهم مهزومين. هذا ما كان موجوداً في مخطوط النسخة الأولى لهذا النص (القصيدة). وهذا يعني أنني أصبحت بسرعة خصماً حقيقياً - ان استطعنا القول - لفكرة هزيمة أعداء الإمبراطوريات الوسطى.

سؤال: ما الذي حثكم على معارضة الحرب بطريقة أكثر راديكالية؟

جواب: لقد كان لي مع والدي ما بين 1915 - 1916، حوارات طويلة حول الآفاق المستقبلية الممكنة لنا. والنقطة المهمة في هذه الحوارات كانت بالنسبة لي، الذي يفكر طبعاً كطفل، أن الذين هم على حق سينتصرون، ولم يكن هذا محل شك. لقد كانت وجهة نظري طبعاً بريئة جداً، لأنني بداية من الشهور الأولى لسنة 1918 أدركت بعد غزو بلجيكا أن حلفاً مخالفاً للاتفاقيات الدولية قد تم، وأنه كان خرقاً للمعاهدات. هذا أقنعني أننا نحن الذين كنا على باطل، وأن

معسكرنا هو الذي أخطأ، واستنتجت من هذا إذن وجوب خسارتنا.

سؤال: لقد الآن، ومنذ بداية هذه المحاورة، لم نتحدث بعد عن الشيوعية، متى اتصلتم أول مرة بأفكار ثورة أكتوبر؟
جواب: خلال معاهدة بريست - ليتوفيسك "Brest-Litovsk"⁽¹⁾.

في لحظة الاتفاق ما بين الإمبراطوريات الوسطى وروسيا، كان عمري يناهز الخامسة عشرة، لقد انفعلت بخطابات الروس، في ندوة السلام. إنه "تروتسكي"⁽²⁾ طبعاً، الذي بهذه المناسبة عبّر عن الأفكار الأكثر أهمية التي نشرت بطريقة تدعو للفضول بالنمسا (لا أعلم إن كان الحال كذلك بألمانيا، بدون شك قد يكون كذلك). إن هذا هو ما جذبني أولاً، نحو الشيوعية، لكن كان لي صديق ولد بروسيا، كان واحداً من قادة الطلبة خلال ثورة 1905. كان يحذرنى من الشيوعيين بقوله لي أنهم مستعدون للقيام بأي شيء، بما فيه الأسوأ، مادام هذا يخدم الحزب. والحق يقال، لقد أخذت تحذيراته بشيء من الشك، ويعود السبب بالضبط، للأثر الذي ولّده في خطابات بريست ليتوفيسك.

(1) معاهدة بريست ليتوفيسك: معاهدة تمت بين ألمانيا وروسيا، حيث خرجت بموجبها روسيا من الحرب العالمية الأولى.

(2) ليون تروتسكي: (1879 - 1940) من القادة البارزين في الثورة الروسية. عيّن مفوضاً لشؤون الحرب بين عام 1917 و1923، حيث أسس "الجيش الأحمر". كما كان عضواً في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية للحزب البلشفي. قاد سنة 1923، حركة معارضة لستالين. طرد سنة 1927 من الحزب، وتم نفيه في أواخر عام 1927. وفي سنة 1940 تم اغتياله في منزله بالمكسيك.

سؤال: إن الاتصال الأولي بالشيوعية قد تم إذن، وأن ما جذبكم هو أنه في خطابات الروس، حديث عن السلام، ولأنك تحتقر فكرة الانتصار العسكري؟

جواب: لقد كنت وقتها في مواجهة المشكلة، التي فيما بعد استرعت اهتمامي أكثر من غيرها ولا زالت تسترعي اهتمامي إلى الآن وهي: الشيوعية نعم أم لا؟

سؤال: وأصبحتم شيوعيين؟

جواب: بعد استتباب السلم بفترة وجيزة في 1919، توجهت إلى مقر الحزب الشيوعي النمساوي، وعرضت عليهم مساعدتي. كان من ضمن القادة الشيوعيين وقتها ثلاثة أشخاص جيرهارد اسلر "Gerhard Eisler"، وهانز اسلر "Hans Eisler" وأخته "فريتّي Fritti - كنية لـ الفرياد Elfriede -" زوجة "فيرلباندر"، التي كانت ربما مطلقة. لقد كانوا الأبناء الثلاثة لفيلسوف نمساوي هو ردولف اسلر "Rudolph Eisler". وللتذكير، في سياق حديثنا، فان جيرهارد كان سيصبح رئيس الحزب الشيوعي الأمريكي قبل أن يطرد من الولايات المتحدة الأمريكية، بعد الحرب العالمية الثانية. اما أخوه الصغير هانس، فكان واحدا من أكبر موسيقيي ألمانيا الشرقية، في حين كانت فريتّي فرايدلندر، التي تحمل اسم "روث فيشر"، رئيسة الحزب الشيوعي الألماني، وتعتبر من بين أكثر النساء نبوغا، إن لم أبالغ.

سؤال: كل هذه الشخصيات يبدو لي ان لا أثر لها على سيرتكم الذاتية التي تتحدثون فيها عن "الأصدقاء الشيوعيون" بصفة عامة، لماذا تتعرضون إليهم الآن؟

جواب: لأن هذه اللقاءات كانت هامة جدا، فلقد تعاملوا معي بكثير من اللطف، ولأنهم فتنوني، ولأنهم في مرحلة أولى، صدقتهم. لكنني أدركت بسرعة أنه تكفي برقية من موسكو لتجعل الثلاثة يغيّرون مواقفهم، بصفة راديكالية، وعلى استعداد للدفاع عن عكس ما أكدوه البارحة، وكذلك باتجاه الأشخاص أيضا، يغيّرون كلية مواقفهم من يوم لآخر. باختصار، لم يكن لديهم إلا مبدأ واحد: التأيد المطلق لموسكو، ضد كل الرياح والأمواج، وبدون أدنى تردد. لقد كانوا مستعدين لتأييد العكس في كل وقت. عندما أدركت هذا، ترعزعت أفكارني تجاه الشيوعية.

سؤال: حسب ما أفهم، الإخوة إيسلر كانوا أشخاصا ذوي مستوى فكري معين. سلوكهم هذا، حثكم إذن على البحث على هذه التغيرات المفاجئة، داخل الأيديولوجية الشيوعية، أكثر من البحث عنها في طباعهم. هل كان هذا هو نقطة انطلاق التحليل الذي أكملتّموه فيما بعد في المجتمع المفتوح وأعداؤه، لقد حان الوقت، ربما لنقولوا لنا فيما يتمثل نقدكم العظيم تجاه الماركسية؟

جواب: نعم، ها هو فيما يتمثل: تنبأ ماركس بأن الاشتراكية أو الشيوعية - لا يهم المصطلح الذي نستعمله هنا - كشكل لديكتاتورية البروليتاريا، يجب أن تتحقق. لقد كانت الضرورة التي يمكن أن تقام بكل يقين من خلال دراسة التاريخ والاقتصاد. وأنها يمكن البرهنة عليها. الشيوعية هي شيء يجب أن يحدث، الرأسمالية مجتمع غير مقبول، يجب أن ينتهي. هذا ما يجب أن يحدث. وانه بعد تحقق الاشتراكية،

سيكون هناك مجتمع رائع. مجتمع جديد كلية، يتحاب الناس فيه، ويحبون بعضهم بعضا، ويسود السلام على الأرض. تلك كانت نواة المذهب، وتنبؤ ماركس يمكن تأسيسه بكل يقين علمي كلية. هذه هي النقطة الهامة، وهو السبب الذي به عرّفت المذهب الشيوعي كفخ، كنوع من فخ الفأر، ولقد كنت الفأر.

سؤال: لقد كتبتم حول هذه الحقبة في سيرتكم الذاتية: "لقد فهمت لب الاستدلال الماركسي، إنه يتمثل في نبوءة تاريخية مشتركة مع نداء ضمني إلى القانون الأخلاقي التالي: آيدوا المحتوم!" يمكن أن يسمح هذا بفهم أفضل لفكرتكم عن "الفخ"؟

جواب: المذهب الشيوعي هو اعتقاد بظهور عالم أفضل، مؤسس على قوانين الصيرورة التاريخية. إذا كانت هذه النواة، فعلى كل واحد واجب بديهي - وخصوصا الذين هم مثلي يكرهون الحرب والعنف - أن يؤيد الحزب الذي سيحقق هذا الهدف. إن هذا الأمر الواقع، الذي يجب بكل الطرق أن يحدث، وإذا قاومت شخصية ما - علما بأن الأمر يتعلق بشيء حتمي - فإن هذا يعد جريمة، لأنها تقاوم شيئا يجب أن يحدث، وتصبح بهذه المقاومة نفسها، مسئولة أو مشتركة في المسؤولية، عن العنف وعن الموت الذي سيحدث حتى تقام الشيوعية. يجب أن تأتي الشيوعية، يجب أن تقام، ويجب إذن أن نأمل أن يكون هناك حد ادنى من المقاومة، وعددا أقل، قدر الإمكان، من الذين يضحّون بهم. وأيضا لقد فهم كل واحد أن التنبؤ يمكن البرهنة عليه علميا وأن الاشتراكية يجب بكل الطرق أن

تصبح واقعا، ومن واجب كل واحد، تسهيل ظهورها. ومن أجل هذا، يتصرف الشيوعيون بطريقة غريبة، ويتناقضون من يوم لآخر، كل شيء كان مسوغا، لأنهم سيساعدون الشيوعية على الاستيلاء على الحكم. لقد أدركت أن هذه هي النقطة الرئيسية، المسألة الحاسمة في التاريخ، والسبب الرئيسي لكل نشاط، وهذا ما يسوغ كل الاختيارات. في الواقع لم يكن فقط تسويغا - لأنه من الواضح أنه يمكن أن نخطئ - وحتى القادة الشيوعيون يمكن أن يرتكبوا أخطاء، لكن كل هذا يظهر كأخطاء ثانوية. الشيوعيون يحاربون من أجل شيء يتوجب أن يتحقق. وهذا ما أسميته الفخ، الذي وقعت فيه لفترة وجيزة.

سؤال: شهور قليلة ثم غيرتم فكركم، ماذا حدث خارج الثقلبات التي تعرضتم لها من قبل أصدقائكم؟

جواب: بدأت سلسلة من الأحداث مثيرة للجدل جدا. تم إيقاف بعض الشيوعيين، في "فيينا"، وحجزهم بمحافضة الشرطة. لنرى هذا. قرّر الحزب تنظيم مظاهرة للمطالبة بإطلاق سراحهم، مظاهرة شارك فيها خصوصا الشباب. وخلال هذه المظاهرة، أطلقت الشرطة النار وقتلت ستة شبان. لقد رأيت ما حدث، لأنني أنا أيضا كنت ضمن المتظاهرين. ودفعني هذا إلى التفكير، في سيرة القادة الشيوعيين، كل ما حدثت أشياء فظيعة، كلما كان الأمر أفضل، لأن هذا يساعد على التهيج (وهو عامل ضروري) للثورة الكبرى. فلم يحسوا إذن بالندم كثيرا حول ما حدث. في حين أنا، أحسست أنني كنت مسئولا عن موت هؤلاء الشبان.

سؤال: هذه النقطة ليست واضحة تماما، لا في سيرتكم الذاتية، ولا في أحاديثكم السابقة، أين تعرضتم إلى هذه الحلقة من حياتكم، لأنكم وكخلاصة لذلك قررتم الابتعاد عن الشيوعية، في الوقت الذي كان فيه الشبان الشيوعيون يموتون من قبل شرطة فيينا، في هذا اليوم لم يطلق الشيوعيون النار، بل كان لهم ضحايا في صفوفهم، وهنا تحديدا تخليتكم عنهم، أليس هذا مثيرا للفضول؟

جواب: لقد عبرت عن الشعور بالمسؤولية، لأنني كنت أعتقد أن من حقنا التضحية بأنفسنا، وأن نعرض حياتنا للخطر، لكننا شجعنا أشخاصا آخرين لمواجهة الخطر، والتعرض لإطلاق الرصاص، وهذا ما لم يكن من حقنا فعله. القادة الشيوعيون لم يكن لهم الحق أن يقولوا للآخرين أنه يتوجب عليهم التضحية وتعرض حياتهم للخطر. هؤلاء الشبان الذين سقطوا كانوا عمالا، ونحن المثقفون ملتزمون بوجه ما بالماركسية. في تلك الحقبة، كنت أتردد على الجامعة، كنا طلبة، نستطيع قراءة كتب ضخمة، ونحس أن من حقنا أن نقول للناس: "هاهو ما سيكون: الشيوعية يجب أن تأتي، ويجب علينا أن نناضل من أجل اظهارها". لقد أدركت أننا كنا مسئولين عن هؤلاء الناس الذين كنا ندفعهم للمجازفة، وبدأت أتساءل: "هل الأمر حقا هكذا؟ هل أنا قادر حقا على التأكيد على قيمة البراهين الماركسية، القائلة أن الشيوعية ستحدث حتما؟ هل أستطيع أن أذهب لرؤية الناس الذين لا يستطيعون قراءة ماركس، وأقول لهم: لقد تحققت وجربت وراقبت ماركس بصفة نقدية، وأستطيع أنؤكد

لكم أن ما يقوله صحيح، وأن براهينه صحيحة، وأن
الشيوعية ستقام وسنتصر، مع كل ما يتضمنه هذا من
تضحية؟"

سؤال: وماذا فعلتم إذن؟

جواب: لقد قررت دراسة ماركس بعمق، وهو ما لم أقم به في هذه
الفترة. لقد استعملت ماركس، لقد توجّب عليّ استعماله،
لكن لم يكن لديّ إلا معرفة سطحية به، وكان يجب عليّ
الآن أن أدرس مذهبه وبراهينه بعمق كبير.

ثانيا

الانتقادات الأساسية للماركسية(*)

سؤال: في هذا الوقت بدأت تحدّدون العناصر الأساسية لنقدكم للماركسية. كيف توصلتم إلى ذلك؟

جواب: لقد بدأت بدراسة "رأسمال Le Capital" وانتهيت إلى خلاصة مؤداها ان أطروحته الأساسية، او لنقل الأطروحة >>رقم 1 << هي كالتالي: الرأسمالية لا يمكن إصلاحها، ولا يمكن إلا هدمها او تحطيمها، وإذا كنا نصبوا إلى مجتمع راق فيجب تحطيم الرأسمالية. والأطروحة الأساسية الثانية، او الأطروحة >>رقم 2<< هي تلك المتعلقة بالإفقار المتنامي، وبحسبها فان ظروف العمال ستزداد سوءا بعد سوء. وهذا ما يستبعد كل إصلاح ممكن للرأسمالية، ويؤدي الى تحطيمها. كما أنني استخرجت من خلال هذه الدراسة، أطروحة أخرى هامة ومفيدة جدا وهي: لا يجب تجريم وتوبيخ الرأسماليين شخصيا، لأنهم هم أنفسهم ضحايا النظام. يجب التذكير بهذا، لان الشيوعيين لم يأخذوا ذلك بعين الاعتبار. وتاريخيا لا يمكن الشك في أنهم أدانوا الرأسماليين على المستوى الفردي او حاولوا أن ينفروا منهم، في حين أن ماركس⁽¹⁾ قد ساند

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

(1) كارل ماركس: (1818 - 1883)، فيلسوف ألماني، مؤسس الفلسفة المادية والنظرية الشيوعية من أهم أعماله: مساهمة في الاقتصاد السياسي، الايدولوجيا الألمانية، الرأسمال.

فكرة أن الرأسمالية هي نوع من الآلة الساحقة للرأسماليين وللعمال على السواء، وأنهم لا يستطيعون فعل أي شيء خارج ما تمليه عليهم الآلة الرأسمالية. لقد كانت هذه الأطروحة في تناقض مع احد المعالم الأساسية للدعاية الشيوعية، بالرغم من ان ماركس ذاته رفض ما وصفه بـ <<الماركسية المبتذلة>> وفكرة ان الرأسماليين سيئين وأنهم يستغلون الناس بالخداع. ولكن في الواقع كانت <<الماركسية المبتذلة>> هي التصور المدعم والمساند من قبل الحزب الشيوعي. ولقد كان الحزب يرى ان من حقه ان يساند هذه الفكرة - فكرة ان الرأسمالي مسئول شخصيا - لأنه كان يعتقد ان له الحق في كل ما من شأنه ان يساعده على التعجيل بالثورة. وهنا يكمن الفخ والمصيدة والشرار والمكيدة. وظيفة الحزب تسمح له بإثارة الحقد والكراهة بقصد الوصول الى الشيوعية. هذا هو ملخص الموقف الاساسي الذي توصلت اليه بعد دراسة ماركس.

سؤال: ولكنكم لم تعددوا كل العناصر الاساسية لنقدكم. هنالك عناصر تابعة لهذه الانتقادات.

جواب: هنالك انتقادات اخرى، واعتقد انها كانت مهمة. انها تلك الاطروحة التي عرضتها بعد نشر كتابي "المجتمع المفتوح واعداؤه" انه تطور لاحق. ومضمونها تحديا: ان الرأسمالية كما وصفها ماركس لم توجد على الاطلاق. وانما هي محض اختلاق، نوع من الخيال الشيطاني او الرواية الشيطانية. صحيح انه كان هنالك دائما اغنياء وفقراء، وان الفقراء يعانون دائما، وان الاخلاق تقتضي ان نساعدهم وان نساعد

المعوزين. واليوم ما يزال هذا المشكل مطروح علينا كذلك، ويجب التدخل الى جانب هؤلاء المعوزين. الا انني لا اعتقد اليوم، بان الامر يتعلق بالعمال. صحيح انه حتى اليوم هنالك فقراء - وسنرى لاحقا من هم هؤلاء الفقراء - ولكن مشكلة المجاعة وظروف العمال لا تطرح كما كانت تطرح في زمن ماركس. مع مراعاة الفارق وهو ان مجتمع تلك الحقبة كان منكوبا ومشؤوما، ولا جدال في ذلك، ولكن هذا لم يكن موضوع ما وصفه ماركس بالراسمالية التي لا يمكن اصلاحها. هذا المجتمع يمكن اصلاحه، في حين ان الاطروحة المركزية لماركس كانت تقول انه لا يمكننا الا تخطيطه. لاحقا، وافق او قبل بان انقلترا يمكن ان تحدث فيها ثورة غير عنيفة، وهو ما يعني ان المجتمع الراسمالي يمكن اصلاحه. لم يقل هذا بشكل صريح، ولكنه بين انه من الممكن ان يحدث التغيير من دون عنف، ولكن في انقلترا فقط، وليس في أي مكان آخر. وبالفعل فانه خلال حياة ماركس حدثت اصلاحات كثيرة، اصلاحات هامة وكبيرة في انقلترا وفي غيرها من البلدان وخاصة في المانيا في عهد "بيسمارك" ⁽¹⁾. ان ما قاله في موضوع ان الراسمالية التي لا يمكن اصلاحها قد تم رفضه واقعيًا، وهو على قيد الحياة. وهو ما يعني ان ما كان يسميه — <<الراسمالية>>، هذا المجتمع حيث يكون الراسمالي والعامل محكوم عليهما ضمن آلية لا تعمل الا على الخط شيئا فشيئا من وضعيتهم، هذا المجتمع لم يكن له وجود

(1) بيسمارك: (1815 - 1898) زعيم سياسي الماني، عمل على توحيد المانيا، فعينه الملك فيلهلم الاول رئيسا للوزراء سنة 1862.

ابدا. والاطروحة المتعلقة بالتدهور عند ماركس، تنطبق على الراسماليين انفسهم، حيث يتم اقضاء الكثير منهم. يحدث الراسمالي الكثير من القتل، لقد كانت هذه احدى الصيغ او العبارات المعروفة عند ماركس، لانه كان يعتقد انه سيقول الراسماليون شيئا فشيئا وان الناس سيصبحون اما ضحايا هذه العملية او بروليتاريين. الا ان مثل هذا المجتمع لم يوجد على الاطلاق، واننا نخطيء عندما نصنف مجتمعنا، بانه مجتمع رأسمالي، لانه يجب ان نفهم من هذا اللفظ المعنى الماركسي، وهذا المعنى لا ينطبق على مجتمعنا. هذا هو النقد الرئيسي الذي ارفعه ضد الماركسية. ويمكن لنا ان نضيف نقدا آخر ويتعلق الامر بفكرة ماركس التي بحسبها يكون الراسماليون هم الديكتاتوريون المستترون بالدولة، وان الدولة في ظل الراسمالية، هي ديكتاتورية مسيرة من قبل الراسماليين. ان هذه الفكرة ليست اكثر من رؤية فكرية. فليس هنالك أي مجتمع، تكون فيه كامل السلطة السياسية للراسماليين. ان الواقع اكثر تعقيدا من هذا، ولم يكن ابدا بهذه البساطة التي اعتقدها ماركس. يجب الاعتراف بانه هو الذي ادخل في العلوم الاجتماعية وفي فهم التاريخ فكرة جد هامة وهي ان للشروط الاقتصادية تأثير كبير على العديد من ملامح الحياة والمجتمع. هنا وضع مبدءا مخالفا، على سبيل المثال، لكل ما قاله المؤرخون قبله. وانه لمن الصحيح القول انه قبل ماركس ليس هنالك تاريخ اقتصادي جدّي. ولكن ككل الرواد لقد دفع باكتشافه هذا الى مبالغاة كبيرة، وذلك عندما ارجع كل الاسباب الى المجال الاقتصادي. لقد كان يعتقد ان

للاقتصاد قيمة تفسيرية كلية وكونية، وهذا من دون شك خطا، لان هنالك في المجتمع، عوامل اخرى جد مؤثرة مثل الدين والقومية وعلاقات الصداقة والزمالة. ففي "فينا" على سبيل المثال كل القادة الاجتماعيين الديموقراطيين تتلمذوا في نفس المدارس وكانوا اصدقاء منذ سن الدراسة، وفي انقلترا نجد جامعة "اكسفورد" تأثير معتبر في السياسة: تقريبا كل رجال السياسة لجميع الاحزاب كانوا اصدقاء في مرحلة الدراسة الجامعية. مثل هذه العناصر تلعب دورا في المجتمع، والفكرة التبسيطية القائلة بديكتاتورية الراسماليين لا تتناسب على الاطلاق مع الواقع.

ثالثا

سنة 1962،

خروشوف والانحطاط السوفيتي (*)

سؤال: لقد استخرجنا بوضوح نقدكم لفخ الفأر، وشرحتم لنا كيف وقعتم فيه، وكيف تحررتم منه فيما بعد. لقد حان الوقت الآن للتعرض لمسألة الشيوعية السوفيتية، وفحص كيف خرجت بلدان كاملة وملايين الأشخاص منها.

جواب: هذه هي النقطة التي أرى أنها مهمة اليوم: أسباب الانحطاط السوفيتي. ولتحديدها يجب أولا رؤية كيف أصبحت الماركسية في روسيا، وكيف أصبح هذا المذهب مادة فكرية خصوصا في المرحلة الأولى. لقد كتبت كمية كبيرة من الدراسات، وأخذت أشكالا متنوعة، خصوصا في ألمانيا وذلك بفضل أناس مثل "كارل كاوتسكي"⁽¹⁾ و"إدوارد برنشتاين"⁽²⁾. وفي روسيا وإيطاليا أيضا، عرفت الماركسية تطورا هاما، لكن ألمانيا هي التي كانت في مقدمة الصف حيث استخرجت منها فلسفات، وتأسست أشكالا متعدد

(*) ترجمة د. لخضر مذبوح.

(1) كارل كاوتسكي: (1854 - 1938)، أحد زعماء الحركة الأممية الشيوعية الثانية، ممثل الاتجاه الوسط في الاشتراكية.

(2) إدوارد برنشتاين: (1850 - 1932) أحد زعماء الاممية الثانية، ممثل الاتجاه اليميني في الاشتراكية.

ومبدعة لأدب وفير. في روسيا، طبعاً، مع وجود الشيوعيين في الحكم، أصبحت الماركسية في الجامعات وعلى كل مستويات البرامج الدراسية، مذهبا راسخا في أذهان كل الشباب، وفي حقبة أقرب إلينا هي حقبة خروتشوف⁽¹⁾، وهي الفترة التي أرجعت إليها بداية الانحطاط السوفيتي. أعتقد أن لا أحد من فريق القيادة السوفيتية، كان يأخذ الماركسية مأخذ الجد، فلم تكن إلا وسيلة لتدعيم النظام، وإطالة بقاء الأشياء.

في الواقع، هناك نقطة ونقطة واحدة فقط، أخذت مأخذ الجد، وهي فكرة أن العدو الرأسمالي، يجب أن يدمر. ويتعلق الأمر بعدو معروف هو طبعاً، الدول الرأسمالية الكبرى. ويعني إجمالاً الولايات المتحدة وبريطانيا، اللتان يجب تدميرهما. وباقي النظرية، قد انحل عملياً، ماعدا هذا المبدأ. في كتاب "مذكرات غير منشورة" لخروتشوف، هناك صيغة بسيطة جداً، هي مفتاح كل الكتاب: "القضاء على النظام الرأسمالي هي المسألة الحاسمة في تطور المجتمع". وكان على خروتشوف أن يقول: "تطور التاريخ" وليس "تطور المجتمع"، لكن المعنى واحد، والتميز بكل بداهة، ليس محمداً. إنها طريقة أخرى للقول أن التاريخ يشترط القضاء على الرأسمالية.

(1) خروتشوف: (1894 - 1971)، قائد شيوعي، حكم الاتحاد السوفيتي من سنة 1953 الى سنة 1964. ارتبط اسمه بمحدثين اساسين الاول وهو التقرير الذي رفعه الى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي سنة 1956 حيث فضح الممارسات الستالينية. والثاني وهو ازمة الصواريخ الكوبية سنة 1962، التي كادت ان تؤدي الى حرب عالمية ثالثة.

سؤال: لقد شك البعض في أصالة هذا الكتاب؟

جواب: من جهتي، ليس لي أي شك حوله. إن تزوير أو انتحال هذا النص، كان عملية محيرة. إنه يحتوي على أكثر من ستمائة صفحة (600)، ويحتوي على الكثير من التفاصيل والإشارات إلى وقائع، بما فيها مكالمات ستالين⁽¹⁾، ولاختلافها كان يستوجب القيام بأبحاث خلال سنوات وسنوات. في الواقع، طرح التزوير لم يؤيد أبدا، حتى وإن كانت قصة الكتاب غريبة: لقد خرج سريا من الاتحاد السوفيتي، وظهر لأول مرة، في حدود علمي بالانجليزية. أعتقد أن الذين يعرفون شيئا عن تاريخ روسيا، يعتبرونه أصيلا. ولأجل هذا نستطيع أن نفترض أن كاتبه نفسه هو الذي يحكي حياته، ويقدم أفكاره. يتعلق الأمر بكتاب ليس كبقية الكتب الأخرى، لأنه يسمح لنا بفهم هذا القرن، وخصوصا لحظة الانفلاق الأعظم للمنعرج الكبير: أزمة كوبا سنة 1962.

سؤال: لماذا تعتبرونه أكثر أهمية؟

جواب: بالنسبة لي، هنا خسر الاتحاد السوفيتي الحرب خلال هذه المحاولة لتدمير أمريكا. ومع هذه المحاولة انهارت الفكرة الماركسية الوحيدة التي بقيت. ومن هذه اللحظة بدأ الانحطاط الذي أدّى إلى الانهيار العام، لأنه في هذه اللحظة بالذات، كان للاتحاد السوفيتي الفرصة التي لم تمنح له أبدا من قبل: فرصة تدمير الولايات المتحدة. فالسوفيت لم يأملوا أبدا في تحقيق هدفهم - المهمة التي أوكلها إليهم التاريخ -

(1) ستالين: (1878 - 1953)، أحد القادة البلاشفة، حكم الاتحاد السوفياتي ما بين 1928 - 1953. تميز حكمه بالديكتاتورية المطلقة وعبادة الشخصية.

ماداموا لم يمتلكوا قنبلة سخاروف⁽¹⁾، هذه القنبلة التي يتحدث عنها الفيزيائي الروسي في مذكراته. وهذا الكتاب هو الذي جعلني أغير رأيي حول دور هذا الرجل. أعتقد أنه كانت له مسؤوليات إجرامية.

سؤال: تتحدثون عن رجل نال سنة 1975 جائزة نوبل للسلام، والذي أنتم أنفسكم امتدحتموه كثيرا في سنة 1981 بحديثكم عنه كـ "مفكر وإنساني عظيم وبطل كبير". الجميع كان يعرف أن سخاروف كان صانع القنبلة الهيدروجينية، لماذا غيرتم رأيكم اليوم؟

جواب: أحتفظ بفكرة رفيعة عما قام به في هذه العشرية الأخيرة، لكن كما سترون، هناك في هذا الكتاب عناصر أرغمتني على تغيير رأيي. إن حالة سخاروف مهمة جدا. لا نستطيع أن نتعرض لكل مظاهرها هنا، وسيكون من مهمة المؤرخين تعميق هذه المسألة. أريد فقط أن أذكر على سبيل المثال، ما كتبه حول موضوع "القنبلة الكبرى" في مذكراته: "لقد قررت تجريب نسخة "Propre خاصة": قنبلة ذات قوة مختزلة، لكن القنبلات الكبرى تتجاوز أيضا تجاوزا بعيدا كل شحنة جرّبت سابقا، وستكون آلاف عديدة أكثر قوة من القنبلة الملقاة على هيروشيما⁽²⁾". ماذا يعني "آلاف عديدة" نستطيع أن نفترض أن هذا يعني على الأقل ثلاثة آلاف مرة،

(1) سخاروف: (1921 - 1989)، عالم فيزيائي روسي، شارك في تطوير القنبلة الهيدروجينية. نال جائزة نوبل للسلام عام 1975. تم اعتقاله عام 1980 ونفيه إلى مدينة جوركي الروسية النائية الأمر الذي جعل منه ضحية للحرية. تم الإفراج عنه عام 1986.

(2) في هذا المقطع يتحدث عن سخاروف في سنة 1961.

إنها فرضية، لأن سخاروف لم يكن له مزاج مثير للجدل، ولا اعتبارات عديدة، لم يكن محمولا على المبالغة. فإذا قال "آلاف المرات"، وبخصوص "نسخة" للقنبلة الأضعف بقليل من النسخة التي كان قادراً على انتاجها، يعني هذا أن قنبلة الهيدروجينية كانت بكل تأكيد، ثلاثة آلاف مرة أكثر قوة من قنبلة هيروشيما. لقد جربت هذه القنبلة في سبتمبر 1961 . لقد اشتغل عليها سخاروف طويلاً، تحت قيادة ستالين. وتعاون مع "بيريا"⁽¹⁾، الذي كانت له معه أحاديث خاصة في مناسبات عديدة وخلال ساعات وساعات. وبعد سنوات من التجريب، كان الاختبار الحاسم سنة 1961. كان خروشوف طبعاً على علم بكل شيء، لقد كتب في مذكراته غير المنشورة، بعد أن علم بالنتيجة الإيجابية لهذا الاختبار "إنه خلال زيارة لبلغاريا، جاءتني فكرة وضع صواريخ ذات رؤوس نووية في كوبا، بدون أن يعلم الأمريكان بذلك، وحتى يكون قد فات الأوان لكي يستطيعوا فعل أي شيء لنا".

سؤال: لقد نجح الاختبار، وخروشوف كانت له فكرة كوبا، كيف فسرها المؤرخون والفكرة جاءت من بلغاريا، مع التفكير في القذائف النووية الموضوعة ليس بعيداً من هنا بتركيا، ماذا كان هناك من جديد في هذا المشروع؟

جواب: تكمن الجدة في البعد الحقيقي للقوة النووية السوفيتية، في هذه اللحظة بالذات أي سنة بعد تجريب القنبلة، ينتقل خروشوف لتحقيق فكرته. تم نقل القنابل سرا إلى كوبا

(1) بيريا: عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، ومسؤول الجهاز السري في عهد ستالين. تم اعدامه سنة 1953.

وأمكن وضع ثمانية وثلاثين (38) رأسا نووياً، حتى وإن كانت غير جاهزة للإطلاق قبل أن يكتشف الأمريكان ما يجري. خروشوف نفسه كتب بهذا الخصوص "لم يكن لدينا الوقت لإيصال كل سفننا إلى كوبا"، لكن يضيف "لقد وضعنا قبل صواريخ لتدمير نيويورك وشيكاغو والمدن الأخرى الصناعية، دون الحديث عن قرية صغيرة مثل واشنطن". وحتى لو عبّر من بعد بطريقة مختلفة، فإن الزعيم السوفييتي، قد قدم مرة ثانية هذا الاعتراف "أعتقد أن أمريكا لم توجد أبداً، مثل ما وجدت في هذه اللحظة بالذات في مواجهة تهديد حقيقي بالتدمير". ولذلك يجب علينا أن نقوم بالحساب التالي: كل رأس من الرؤوس الثمانية والثلاثين الموضوعة بكوبا، لها ثلاثة آلاف مرة القوة المستخدمة في هيروشيما، وهذا يعني ان قوة تدميرية كامنة تساوي 114000 مرة قنبلة هيروشيما، قد نجح في الى إرسالها.

سؤال: ولقد كان التاريخ، خلال هذه الأزمة، قاب قوسين أو أدنى من الكارثة، نعرف هذا من قبل...

جواب: لكن ما كان يجهله "جون كينيدي"⁽¹⁾ الرئيس وحتى "روبير" أخوه، الذي لعب دورا كبيرا في هذه القضية، ومؤلف كتاب "ثلاثين يوما Thirteen days"⁽²⁾ - كتاب آخر مهم حول

(1) جون كينيدي: (1917 - 1963)، رئيس الولايات المتحدة الامريكية ما بين سنة 1961 وحتى سنة اغتياله في 1963. تميزت مرحلة حكمه باشتداد الحرب الباردة بين امريكا والاتحاد السوفياتي، وهو ما عبرت عنه ازمة الصواريخ الكوبية.

(2) Robert Kennedy, Thirteen days a memory of the Cuban missiles crisis, New York Norton, 1969.

مسألة صواريخ كوبا - . بكل تأكيد كانا يعرفان أنها كانت
إمكانيات كبيرة، لكن لا أعتقد أنهما كانا يدركان مداها، هذا
ما نعرفه الآن بفضل المعلومات التي أعطاها لنا سخاروف
سهوا في هذا المقطع. معلومات لم أعثر عليها في مكان آخر،
حتى في كتاب أحدث منه، والموثق جيدا حول هذا الموضوع
"كينيدي إزاء خروشوف Kennedy Versus Khrutchev"
لميخائيل بيشلوس⁽¹⁾.

سؤال: تريدون القول أن لا أحد من المؤرخين أشار إلى هذا المقطع
في مذكرات سخاروف؟

جواب: لا أريد مهاجمة المؤرخين، بحكم أنه لم يكن لهم الكثير من
الوقت، لكنني لم أرى أية دراسة نقدية تشير إلى هذا
المقطع.

سؤال: غيرتم رأيكم حول سخاروف بسبب قوة قبيلته؟ كنا نعرف
أنه كانت لها قوة تدميرية كبيرة.

جواب: الآن، أود لفت الانتباه حول النقطة التالية في كتاب
سخاروف: "بعد اختبار القنبلة الكبرى، اهتممت بواقع أن
العسكريين لا يستطيعون استعمالها بدون ناقل فعال، لأن
الطائرة القنبلة سهل إسقاطها" بعبارة أخرى، القنبلة لا يمكن
نقلها بواسطة الصواريخ التي يمتلكها السوفيت. اهتم
الفيزيائي بهذه المشكلة، مع انه ليست مهمته. لكن لنواصل
ونرى ماذا يقول: "لقد بذلت ما في وسعي لإنجاح مشروع
طريد torpille كبير، يطلق من غواصة، ومجهز بمحرك، له

(1) M. Beschlos , Kennedy versus the crisis years 1962 - 1963 , New York , Faber & Faber. 1991.

طاقة نووية تحول الماء إلى بخار. وستكون الأهداف المستهدفة هي موانئ العدو البعيدة بمئات من الآلاف. طمأننا خبراء في البحرية، أننا سننتصر في الحرب، إن نحن دمرنا القواعد البحرية للعدو. بنية الطرديدات ستكون بنية أكثر صلابة وضمانا لمقاومة انفجار الألغام، وثقب الشباك المضادة للطرديدات. عندما تصل إلى أهدافها، شحنت المائة ميغا طن، سواء تحت الماء أو في الهواء، تحدث عددا كبيرا من الضحايا". يمكنكم بالمناسبة أن تدركوا أن سخاروف لم يكن عاملا سلبيا مطيعا لأوامر، لكنه شخص مكرس بنشاط لمهمته. يقول كذلك "استشرت الأميرال فومان Fomin في بداية مشروع Torpedo - الطرديد الكبير - لقد كان محيرا ومشوشا ومضجرا من فكرة إبادة جد فظيعة ومرعبة، ولاحظ أن ضباط الأسطول قد تعودوا على محاربة خصوم مسلحين فقط، في معركة مفتوحة. لقد أحسست حقا بانحراف في المزاج، ولم أتكلم في هذا الموضوع مع أي أحد. ولم أهتم بعدها أبدا يجعل هذه الفكرة مقبولة: إنها لم تكن متطابقة مع المذاهب العسكرية المعتادة، وكان من الجنون إنفاق مبالغ ضخمة ضرورية لتحقيق هذا المشروع". انظر "منحرف المزاج بعمق". هذا هو ما يقوله سخاروف. بعد أن "بذل ما في وسعه" لتصميم هذه الآلة الرهيبة، التي كانت ستدمر نيويورك في لحظة، فإنه يستمع ويتناقش ويلتقي بمسؤولي البحرية، يتناقش مع أميرال. هذا الأخير يجيب، لا نحارب هكذا، وهو (اي سخاروف) يحس بـ "انحراف في المزاج"!

سؤال: لقد عرفتم أينشتاين. هل تعتقدون أن موقفه حول موضوع صنع واستعمال القنبلة كان مختلفا؟

جواب: نعم. قبل أينشتاين العمل حول القنبلة الذرية، لأنه كان يؤمن أن الألمان كانوا بصدد صنع آلة ذرية نووية، وقام بهذا العمل من أجل الدفاع عن أمريكا. سخاروف، كان هو في اللحظة التي تحدث عنها، لا يزال شيوعيا وهذا يعني، اذا استعملنا مصطلحات خروشوف "إنهاء" الرأسمالية. لم يكن وسيلة، أو أداة سلبية بين يدي الزعماء المعتدين. بل كان بالأحرى، على العكس، منغمسا كلية في هذه الفكرة. لقد كان عمره تسعا وثلاثون سنة (39)، عندما جرّبت القنبلة، وأربعون عندما ذهب للقاء الأميرال.

سؤال: توجهون لسخاروف قنما مرعبة. لماذا تراجعتم عن حكمكم الذي أصدرتموه منذ حوالي عشر سنوات، فيما يفيد فتح ملف قضية سخاروف مرة ثانية؟

جواب: لأن هذا يبرهن أنه حتى، بالنسبة لرجل مثل سخاروف، الذي يتحلى بذكاء كبير، والذي كان يمكن أن يرى أن النظام السياسي السوفيتي قد جعل من هذا البلد مكانا رهيبا - وهو ما أدركه لاحقا - الا انه كان كألاعمى كلية. في كتابه لم يقل أبدا "كنت عاملا أنفذ أوامر" كان يستعمل، لנردد عبارة خروشوف، نفس كلمات مجرمي الحرب الألمان. وقال له يوما "سأقوم بواجبي" لقد كان هذا بمناسبة جدال حول التجارب النووية. كان يعرف سخاروف أن كل انفجار تجريبي من هذه القنبلة الخارقة للعادة، يعني مرضا بالسرطان بواسطة الإشعاع لآلاف الأشخاص.

ويقول أنه حاول إقناع الزعيم السوفيتي بأنه لا يجب القيام بها، وهو ما أجاب عنه خروتشوف بأنه "مسألة سياسية" وليست مسألة "علمية"، وغضب جدا منه، لأنه يشتغل بالسياسة "سأقوم بواجبي" ردّ عليه سخاروف، وهناك الكثير ما يقال حول مسؤوليات سخاروف، يجب العمل طويلا حول مذكراته.

سؤال: لكن سخاروف قدم أيضا وجهها آخر. لقد غيّر فكره وبرهن على شجاعة كبيرة وتحدى النظام، وأصبح واحدا من أنصار المنعطف الديمقراطي؟

جواب: اتخذ سخاروف المبادرة، دون أن يطلب منه أحد ذلك، لبرجة نمط جديد من آلات الطريد بغية تدمير أمريكا. وواضح أنه كانت تملكه فكرة إنهاء الرأسمالية. لقد وقع في ما أسميته فخ الفأر، في الثقب الأسود الفكري لإيديولوجية تزعم معرفة مسار التاريخ والقوانين التي تحدد تطوره الضروري والمحتوم. ولا نستطيع أن نقول أن رجلا بلغ الأربعين لازال صغيرا لا يستطيع الحكم. صحيح كلية أنه فيما بعد، غيّر فكرته. لكن إذا قاتلكم رجل في سن الأربعين، وتمكن بعد بضع سنوات من بعد أن يتأسف على ذلك، وأنه كان عليه ألا يفعله، هل يمنعه هذا من أن يكون قاتلا؟

أحفظ، برأي رفيع للقسم الأخير من حياة سخاروف، لكن مع انزعاجي الكبير، يجب عليّ تصحيح حكمي العام حوله. بالنسبة لي، كان أولا مجرم حرب، وهذا لا يمكن أن يعذر فيه، لا لشيء إلا لقاء ما قام به لاحقا.

سؤال: لا نستطيع مع ذلك إلا أن نأخذ بعين الاعتبار واقع أن سخاروف قد شبّ بالاتحاد السوفيتي، وأنه كان طفل عصره وبلاده؟

جواب: صحيح أنه كان في موقف أصعب من موقفي، وأنه كان يستطيع بسهولة، أقل من السهولة التي كانت لي تعيين "الفخ". أنا كنت أعيش في بلاد حرة، حرة نسبيًا عندما خرجت من هذا الفخ، في سن السابعة عشرة، كان هو يعيش بالاتحاد السوفيتي وقام بهذا التعيين متأخرًا جدًا. وهذا لا يدل، إلا على السلطة التي استطاعت أن تمارس تأثيرًا كبيرًا من خلال أيديولوجيتها، على أشخاص يتمتعون بذكاء وموهبة وشجاعة خارقة للعادة، ولقد كانت لسخاروف الفرصة للبرهنة على أنه كان يمتلك الشجاعة.

سؤال: لكي نعود إلى أطروحتكم المتعلقة بأزمة الصواريخ الكوبية، ما الذي يثبت أن خروشوف كان سيعتزل القنابل لو نجح في إرسالها سرا؟ وأن هدفه لم يكن بالأحرى أحداث مفاوضات مع الأمريكيان على قدم المساواة (صواريخ كوبا ضد صواريخ تركيا)؟

جواب: نقل شيء مثل 114000 قنبلة من قنابل هيروشيما إلى كوبا، بغية التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة، هذا أمر لا يستقيم. لو كانت القنابل جاهزة للإطلاق، لاستعملها خروشوف، لردع الأمريكيان بأكثر سرعة ممكنة. وكان من الممكن للزعيم السوفيتي أن يقول لكيبيدي: "أنظروا، لديّ ما أمحوكم به من الخريطة، إذن

فماذا تعطونني". لأن الولايات المتحدة لم يكن في استطاعتها، أن تفعل غير ذلك، تطلق بدورها قنابلها أليس هذا بديها؟ في مثل هذه الحالة، لم يكن لأمريكا أي خيار، وخروشوف لا يستطيع ألا يعرف أنه لم يترك لخصومه إلا اللجوء إلى الأسلحة النووية. ولا يمكن رؤية الموقف بطريقة أخرى: أعلم أن لديكم مليوناً في الجيب، وأنا لديّ مسدس، لكن أيضاً أنتم أيضاً لديكم مسدس، إذن، إذا عرفت أنكم أنتم أيضاً مسلحون، وإذا عرفنا كلانا أن الآخر مسلحاً، فلن أستطيع أن أقول: "هو ذا سيدي، جئت لأتناقش معكم"؟

سؤال: لقد أدخلتم مشكلة سخاروف وأزمة 1962 لتحديثنا عن الانحطاط السوفيتي. الآن يجب تفسير، بوضوح أكثر، أطروحتكم التي تتحدد مقدماتها الأولى في هذه الحقبة. إن فشل هذه المحاولة العسكرية لخروشوف، كانت، كما يقولون، بداية النهاية. تعتقدون إذن أن هذه المحاولة كانت آخر إمكانيّة للاتحاد السوفيتي لإحراق الهزيمة بالولايات المتحدة؟

جواب: نعم لقد كانت الأولى والأخيرة. الأولى، لأنه بدون قنبلة سخاروف، فإن السوفيت، لم يكن لهم أي حظ لتدمير أمريكا بدون حرب، أي بواسطة اغتيال. والأخيرة، لأنه بداية من هذه اللحظة، عرف السوفيت دائماً، أن الولايات المتحدة لن تتردد لحظة، إن جدّت ظروف مطابقة لها. إنها الأولى والأخيرة، وأنه بهذا الفشل، قد مهد للانحطاط.

سؤال: إذن، تعتقدون ان الأسباب العسكرية هي التي ادت الى انحطاط الاتحاد السوفيتي والشيوعية؟

جواب: نعم، هذه هي الفكرة الوحيدة الأساسية، الفكرة الأخيرة، التي بقيت من المذهب الماركسي. كانت الفكرة تقول: الرأسمالية يجب أن تدمر. والطبقة الحاكمة للديكتاتورية الشيوعية، كانت تقدر أنها أداة التاريخ، التي بواسطتها ستدمر الرأسمالية، ويتم انقاذ العالم. ومن أجل هذا، فيما بعد، واصل السوفيت صنع القنابل، ولا شيء غير ذلك، مع علمهم أنهم لا يستطيعون استعمالها. وهو ما كان على المستوى الفكري شيئا غير ذي معنى على الإطلاق. وبداية من هنا، فان الآمال التي كان يستطيع السوفيت تغذيتها، لم يفعل إلا على تحليلها. ورغم هذا، صنع هذا البلد، ما يقارب 1400 قنبلة ذرية، الواحدة منها ذات قوة ثلاثة آلاف قنبلة هيروشيما، وهو ما يعطي على الأقل مجموع ثلاثة ملايين ومئتي ألف (3.200.000) قنبلة من قنابل هيروشيما. وكل واحدة منها يمكن أن توجد في السوق السوداء، وقد وجدت بالفعل، دون حساب أن الصينيين أيضا يستطيعون منافستهم في هذه السوق. هذا هو الموقف المرعب الراهن، إنه أول تحد يجب رفعه.

سؤال: سنعود الى هذه النقطة الأساسية في سياسة اليوم. لكن الآن، أود أن تكملوا تحليلكم للانحطاط السوفيتي: لماذا بعد هذه الحقبة وبعد سنة 1962 - التي كانت آخر إمكانية برأيكم "لإنهاء" عسكري للولايات المتحدة الأمريكية، وأن الكثيرين يرون انها كانت على الأقل آخر

إمكانية منحت للتوصل إلى توازن عسكري بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي - استمر النظام الشيوعي طويلا؟ ولماذا لم يحدث المنعطف النهائي الا مع غورباتشوف⁽¹⁾؟

جواب: لأنه لم يوجد على رأس الاتحاد السوفيتي، رجلا مثل غورباتشوف يدرك ضرورة تغيير الفرضية القاعدية لكل السياسة الروسية، التي تقول أن مهمة هذا الشعب تتمثل في تدمير الرأسمالية، يعني أمريكا، وغورباتشوف هو كذلك الزعيم الوحيد الذي زار الولايات المتحدة مرات عديدة، وهذا هو المهم، لأن هذا سمح له بمعرفة الواقع الأمريكي، وترجم إرادته للبرهنة على تفهم اتجاه شعب حر، شعب غير عدواني نحو الاتحاد السوفيتي، والذي يأمل أن يكون للاتحاد السوفيتي نفس الموقف. إنه غورباتشوف الذي أعلن هذه الجملة المهمة: "أريد أن أجعل من شعب الاتحاد السوفيتي شعبا سويا". هنا واحدة من كلماته العميقة - والحق يقال - التي تثبت أنه رأى جيّدا أن شعبا سيكون فيه أناس مثل سخاروف، يستطيعون أيضا أن يصبحوا عدوانيين، بدرجة لا تصدق. ليس "شعبا سويا" هذا هو امتياز غورباتشوف انه فهم أن شعبه، لم يكن "سويا" في حين أن الشعب الأمريكي كان "سويا" أريد أن أقول من وراء هذا، أنهما كانت لهما مواقف مختلفة كلية، وأن الأمريكيان لم يكن في رؤوسهم

(1) غورباتشوف: (1931 -)، أمين عام الحزب الشيوعي السوفياتي ورئيس الدولة من سنة 1985 الى سنة 1991. دعا إلى إعادة البناء والشفافية. وفي ظل حكمه تفكك الاتحاد السوفياتي.

اللعب المرعب، الذي تحدثنا عنه. كل الذين يعرفون أمريكا، يعرفون ماذا أريد أن أقول.

سؤال: تعرفون بهذا الامتياز لغورباتشوف، لكن نعلم جيدا أنه ليس لكم رأيا رفيعا حوله؟ لقد قرأت محاورتكم مع "ريكاردو شيابيرج" التي أكدت فيها أن كتابه "بيرسترويك"⁽¹⁾، كتاب "فارغ كلية"، وأنه ليس إلا "رجحا"، وزيادة على هذا تقولون أن "يلتسين"⁽²⁾ ليس إلا "رجلا مريضا بأناه".

جواب: نعم، أدم هذه الأحكام، لقد آيدت دائما، أن غورباتشوف كان من المحتمل ان يكون رجلا صاحب نوايا طيبة، لكنه بدون أفكار، ولا مخططات دقيقة، كما يستنتج من كتابه. ومع ذلك له امتياز كونه فهم الفرق الموجود بين الموقف السوفيتي والموقف الأمريكي، وأيضا، أنه بحاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة. أما فيما يخص يلتسين، يبدو أنه لا يهتم الا بنفسه، وخاصة رغبة الثأر من غورباتشوف.

سؤال: كان هنالك دائما امر وهو انه مع هذين الرجلين وصلنا إلى المنعطف الكبير، وإلى حل النظام السوفيتي، كيف كان حسب رأيكم العمل الحاسم، الذي أدى إلى سقوطه؟

جواب: إن الواقعة الحاسمة التي أدت إلى انهيار الأنظمة الشيوعية، كانت هروب ألمان ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية عبر

(1) البيروسترويك او اعادة البناء وهو عنوان كتاب غورباتشوف، الذي طرح فيه برنامجه لتحديد الاتحاد السوفياتي، بالاضافة الى شعار الغلاسنوست او الشفافية.

(2) بوريس يلتسين: (1931 - 2007) أول رئيس لروسيا المعاصرة، حكم ما بين 1991 - 1999.

النمسا. أعتقد أنه، حتى ولو أن الاتحاد السوفيتي لم يختزل، إلا إلى نوع من الفضاء الفكري الفارغ، لكان يستطيع أن يستمر إلى الأبد، أو على الأقل لمدة أطول. لكن ما عجل الحركة، كان قرار المجريين بفتح حدودهم لألمان ألمانيا الديمقراطية سابقا، والسماح لهم بالالتحاق بألمانيا الغربية عبر النمسا. وهذا سبب أزمة النظام الألماني الشرقي، وكل ما تلاه وتبعه. عند هذا المستوى، لم يكن يستطيع غورباتشوف تجنب الكارثة. وكان يمكن إرسال جيوش إلى المجر، لكنه لم يكن مستعدا لمثل هذه المبادرة، وزيادة على هذا، ما كانت الولايات المتحدة لتسمح بذلك. لهذا، نستطيع القول أن الواقعة الحاسمة جاءت من المجر. وهذا ما أعتقد، على كل حال، ونعرف جميعا، ما حدث سنة 1989، وما حدث منذ الأزمة الألمانية.

رابعاً

الأسئلة السياسية على جدول الأعمال، دولة القانون والأطفال (*)

سؤال: لقد وصلنا إلى نهاية النظام السوفيتي. أحب الآن أن نناقش نتائج هذه الأحداث، بداية في البلدان التابعة له سابقاً ثم بعد ذلك في مجموع الساحة السياسية العالمية. من وجهة النظرية السياسية، ما هي النتائج التي يمكن استخلاصها؟

جواب: في البداية أريد أن أؤكد، انه لا يمكن لنا ان نبني من الأعلى مجتمعا قائما على الاقتصاد الحر. ما يمكن ان نفعله من الأعلى، والذي يجب علينا أن نفعله دائماً، وما يتحتم على الحكومات ان تفعله، هو محاولة إقامة دولة القانون. والروس في حاجة إلى دولة القانون، ولكن لا احد يقول ذلك الآن، ولم اسمع أحدا يتكلم عن ذلك. ومن اجل الوضوح، أريد أن اشرح الفارق الكبير، حسب رأيي، بين ما فعله غورباتشوف وما كان يجب عليه ان يفعله. وفعلاً فان ما فعله شيء مضحك وسخيف، وذلك عندما انشأ بورصة القيم في موسكو، وتم تدشينها تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية كما رأينا ذلك في الصور الفوتوغرافية.

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

سؤال: لماذا تعتبر إنشاء البورصة في موسكو مهزلة؟

جواب: لأنه لا وجود لا للقيم ولا للنقود التي تشتري. لا قيم - بمعنى الاسهم - ولا للنقود. أريد أن أقول، نقودا حقيقية وليس الروبل. ومع ذلك فلقد انشأ بورصة للقيم، اما الشيء الذي لم يكن موجودا وما يحتاجه الروس بالدرجة الأولى، هم القضاة، ليس القضاة الذين ينتقيهم الحزب الشيوعي، وإنما قضاة مكرسون لدولة القانون، القضاة الذين يشعرون انهم مسئولون على عملية تأسيس دولة القانون في أوطانهم او بلدانهم. لقد كان القضاة والى حد الآن مجرد وسائل للديكتاتورة في الاتحاد السوفيتي. وليس هنالك قانون يحدد الاجراءات العادية التي تحفظ حقوق الجميع، ... الخ. من هنا كان يجب البدء من القضاء وليس من بورصة القيم.

وحتى نابليون "Napoléon"⁽¹⁾ كان يعرف انه يجب إنشاء قانون وإقامة تشريعات إذا أردنا أن نقيم مجتمع السوق الحرة. إلا انه لا احد قد قال هذا بشكل واضح، حتى هنا في بريطانيا، حيث توجد تقاليد عريقة لدولة القانون. فحتى هنا كذلك، يجب أن تكون هذه الضرورة واضحة، بما ان الفساد والرشوة تتداخل بشكل واسع مع السوق الحرة. في انكلترا تهتم الشرطة دائما بما يجري في عالم البورصة. ثم ان النضال من اجل دولة القانون لم ينتهي في أي مكان، حتى هنا عندنا، في المجتمعات الغربية. وفي روسيا كان على الحكومة ان تقوم بهذه الخطوة الأولى والوحيدة. ولكن بدلا من هذا،

(1) نابليون بوناپرت: (1769 - 1821)، قائد عسكري وإمبراطور فرنسي.

فإنهم حاولوا وبكل الوسائل إدخال نظام جديد في الاقتصاد. إننا لا نستطيع إقامة نظام اقتصادي من الأعلى، لأنه لا يمكن أن يكون لنا اقتصاد حر إذا لم يكن لدينا أناس لهم أفكار في الاقتصاد، أفكار في هذا القطاع أو ذاك، أناس يفرضون أنفسهم من خلال عرضهم لمنتجات لا يقترحه أحد، خبز جيد تفاح جميل فلفل كبير... الخ أي كل ما يريده ويرغب فيه الناس ويحتاجونه، يجب أن تكون لهم المقدرة على تقديمه ولكي يكون هذا ممكنا يجب قبل كل شيء أن تكون هنالك آلية تحمي الذي يشتري والذي يبيع، الا وهي آلية السوق.

سؤال: طرحت هنا نقطة مركزية في تفكيرنا اليوم، يكتنفها بشكل عام نوع من اللبس: يتعلق الأمر بالعلاقة بين حرية السوق وتدخل الدولة، بين المبادرة الحرة في الاقتصاد وبين المهام الموكلة للهيئات السياسية والعامة التي لا يجب أن تتخلى عنها. فأزمة الأنظمة الشيوعية ذات الاقتصاد المخطط قد أدت إلى نوع من الرأسمالية المتوحشة - محرومة أو مجردة من الفعل الناظم للسلطة السياسية - رأسمالية في الواقع لا وجود لها، لأنها لم توجد حتى في العالم الغربي. والحال فإنكم في "الاجتماع المفتوح وأعداؤه"، بمعنى في العمل الذي تتقدون فيه التسيير الاشتراكي باعتباره تسييرا شموليا، والذي لم تكونوا فيه سذجا لدرجة أن تعتقدوا أن الليبرالية تعني غياب كل أشكال تدخل الدولة. لقد ساندتم في هذا الكتاب فكرة تفضيلكم لتدخل تدريجي وديمقراطي مثل ما هو الحال في الاتجاه الاجتماعي - الديمقراطي السكندنافي.

لنوضح جليا هذه النقطة، حتى نرى اذا كنا نستطيع تقديم اقتراحات عملية للسياسة الحالية والمستقبلية، في الشرق كما في الغرب. لنبدأ بهذا: ما هو في رأيكم، ذلك التوازن الصعب بين السوق والتدخل الاجتماعي؟

جواب: لنبدأ بالقول انه لا وجود لاقتصاد حر من دون تدخل للدولة. ان هذا الإقرار يبعد جملة من الأفكار المعينة والمتداولة: لا يمكن أن يكون هناك اقتصاد حر، لنكن واضحين، من دون تدخل الدولة.

سؤال: لماذا؟

جواب: لدينا تقارير تاريخية لما جرى في الأسواق الحرة المتوسطية méditerranéenne قديما. كانت سفن فينيقية phénicien ترسي على شواطئ أثينا Athènes، حيث يتم تبادل السلع. ولكن في اليوم الذي رجع فيه الفينيقيون حاملين الأطفال اليونانيين معهم، دق ناقوس التبادل. وبطبيعة الحال لم يجرؤ الفينيقيون بعد هذه الخطوة، على العودة إلى أثينا. هل تفهم ما أريد قوله؟ لقد سرق الفينيقيون، وبالنظر إلى كوفهم سرقوا أطفالا، فان إقامة سوق أصبح أمرا مستحيلا. فإذا لم يكن هنالك نظام تشريعي قائم سلفا، لا يمكن أن تكون هنالك سوق حرة. يجب ان يكون هنالك فرق بين الشراء والبيع من جهة، والسرقه من جهة أخرى. والحال فان نظاما كهذا لا يمكن أن يقوم إلا بواسطة الدولة. وحتى في المجتمعات التي لا تحصل فيها السرقة الا مناصفة بمعنى من خلال الرشوة، فان هذه الأعمال كذلك لا تتلاءم مع سوق حرة. على سبيل المثال يمكن أن نشير إلى الحالة التي حدثت

في انكثرا مع الاغيار المالي لـ "ماكسويل Maxwell". هذه كذلك، كانت ولو نسبيا مسالة رشوة وسرقة أموال، بمعنى ان ماكسويل قام باقتراض الملايير من البنوك ولم يستطيع تسديدها. كل محاولة لإقامة ما نسميه "الراسمالية" لا يؤدي، في غياب نظام من القوانين، إلا إلى الرشوة والفساد والسرقة. الفارق بين دولة محدودة التدخل ودولة واسعة التدخل لا يعتد به مقارنة بالمجتمع الذي له نظام تشريعي ومجتمع لا يملك مثل هذا النظام.

سؤال: انك تقوم بعملية قلب لبعض الأفكار المهيمنة ليس فقط في الشرق ولكن في جهات أخرى، والتي من خلالها يمكن إقصاء مختلف الوظائف السياسية أو الانتهاء منها. ما هي نتائجها على سبيل المثال على تطور المجتمع الروسي؟

جواب: اعتقد أن الأمر يتطلب سنوات حتى يتم تأسيس نظام تشريعي في الاتحاد السوفيتي سابقا، سنوات حتى يتمكن من إقامة شيء يشبه السوق الحرة. ومن الآن إلى ذلك الوقت سنعرف وسنشهد كل أنواع الانقلابات والتغيرات. الناس تذهب الى روسيا وتعود جيوبها ممتلئة، تاركين خلفهم ديون وفوضى مالية. هذا لا شك فيه. ففي ظل غياب نظام من القوانين، لا يمكن ان نقيم الا الفوضى او "العماء chaos"، هذه هي أطروحتي أساسا. واعتقد أننا أهملنا كل هذا، لأننا مازلنا تحت تأثير الماركسية، بمعنى الاستمرار في تفكير الاقتصاد والتقليل من أهمية النظام التشريعي، لأنه بحسب ماركس، القوانين هي نوع من القناع والتنكر من السرقة. لهذا السبب إننا نرتكب خطأ خطيرا.

سؤال: إذن أنت تعتقد ان تدخل الدولة محدد في إقامة نظام تشريعي ودولة القانون، انه شرط مسبق او مقدم لسوق حرة. لننظر الآن كيف ان تدخل "الفعل العام *action publique*" يمكن أن يساعد في تحديد دور اليمين واليسار. ولكن هذين اللفظين <<يمين>> و<<يسار>> هل ما يزال لهما معنى ما عندكم؟ هل يمثلان تقسيما دائما للساحة السياسية وهل من المفيد الاحتفاظ بهما؟

جواب: ألمي الكبير، انه مع زوال الماركسية، نتمكن من إقصاء واستبعاد الضغط الذي تمارسه الأيديولوجية في قلب السياسة. تثير الماركسية حتما وجود أيديولوجية مناهضة للماركسية، لهذا كانت هنالك مواجهة بين إيديولوجيتين كانتا، بمعنى ما، مجنونتين كلية. والحال انه خلف هذه المواجهة، ليس هنالك اية حقيقة، وإنما فقط مشاكل وهمية ومسائل خاطئة. ما أتمناه، منذ أن كتبت "المجتمع المفتوح وأعداؤه" هو ان ننجح في إنشاء قائمة للأولويات التي نطبقها في المجتمع.

سؤال: هل يمكن ان نخبرنا بهذه القائمة من الأولويات؟

جواب: النقطة الأولى هي السلم. والمسألة الأولى متعلقة بما سبق أن تحدثنا حوله والخاصة بقنابل سخاروف ومن أن الرؤوس النووية المنتجة في الاتحاد السوفيتي والصين تباع مع الأسف، في السوق السوداء. الحفاظ على السلم، هذا يعني بان كل المجتمعات المتحضرة، والتي ما زالت متحضرة، عليها أن تعمل من اجل إبعادها أو استبعادها من السوق السوداء. ولعله يجب شراءها، ولما لا؟ قد يكون ذلك أفضل طريقة

لامتلاكها بكل أمان. إذا أردنا ضمانا حقيقيا للسلم، يجب على هذه الدول أن تتعاون حتى نصل، إن أمكن إلى وضعية حيث تكون فيه القنابل في أيدي الشعوب المتحضرة، من أجل أن تحطمها وان لا تحتفظ إلا بكمية قليلة منها، وذلك لأسباب أمنية. هنا تكمن النقطة الأولى من القائمة، والتي تتطلب تعاون جميع الأطراف. ولا يجب اعتبارها من طبيعة أيديولوجية.

ثم بعد ذلك، يجب وضع حد للانفجار السكاني أو الديموغرافي. هذه النقطة كذلك، أي النقطة الثانية في القائمة، رئيسية بالنسبة للعالم كله. فكل هذه الأحداث حول المحيط والبيئة لا تغني شيئا إذا لم نتصد للمشكل الحقيقي وهو النمو الرهيب للسكان. انه هو الذي يتسبب في هدم وتخريب المحيط. وهنا أيضا، علينا ان نتعاون بعيدا عن الانتماءات الإيديولوجية.

النقطة الثالثة وهي التربية. وفي هذا المجال، اعتقد انه يجب وضع برنامج حيث على الجميع أن يتعاون. لقد قدمت مداخلة منذ سنوات حول هذا الموضوع، في غرفة اللوردات بطلب من الحزب الديمقراطي - الاجتماعي، وكانت أطروحتي، ومازالت إلى حد الآن، هي: نحن نربي أطفالنا على العنف بواسطة التلفزيون ووسائل الاتصال الأخرى المختلفة. لقد قلت في هذه المناسبة، ومازلت أؤمن بذلك، إننا في حاجة، مع الأسف، للرقابة.

سؤال: يأتي هذا التأكيد تدقيقا من ليبرالي مثلكم. في الواقع، ان ترددي وسائل الإعلام، يعاقب غالبا، وخاصة الولايات

المتحدة الأمريكية، ولكن على العكس من ذلك فإنه في ألمانيا مسموح به من قبل الليبراليين. التنديد بأضرار أفلام الجنس والعنف احد فرسان المعركة لمعارضى الليبرالية.

جواب: انني آسف لأنني قلت ذلك، ولأنني تحديدا ليبرالي ولأنني لست مع الرقابة. ولكن صحيح أيضا بأنه لا يمكن أن تكون هنالك حرية من دون أن تكون هنالك مسؤولية. فلو كان كل واحد يعيش بصفة مسئولة كاملة - كما كان يجب ان يعيش - ويفكر في نتائج أفعاله على الأطفال، لن نكون في حاجة إلى الرقابة. إلا انه مع الأسف، الأمور ليست كذلك، والوضعية تزداد سوء بعد سوء: الناس يرغبون أكثر فأكثر في العنف ويطلبون ذلك من التلفزة أن تعرض ذلك أكثر فأكثر. إننا لا نقبل هذا التصعيد. لقد قرأت في الجرائد قصة ذلك الشاب الإيطالي، الذي قتل والديه من اجل أن يسرق دراهمهم بمساعدة صديقيه⁽¹⁾. فبالإضافة إلى مأساوية الحدث، فإن ما هزني هو حجم المساندة الذي تلقاه بعد أن ارتكب هذا الفعل. لذلك أتساءل: أليست هذه حجة تؤكد أنني على حق عندما حذرت من خطر توجيه تربية الشباب نحو العنف؟ رسائل دفاع القاتل تأتي بكل بداهة من أناس يقضون نهارهم أمام الشاشة، شباب يشاهد التلفزة لساعات وساعات. لقد كنت مريبا، واعرف ان الأطفال لا يحبون العنف. وعندما يحدث ان نشاهد أفلاما في السينما مع

(1) يشير بوبر الى "بيترو مازو"، الشاب الفيروني الايطالي، الذي كان يبلغ من العمر 19 سنة، والذي قتل اباه وامه بمساعدة صديقيه، من اجل الحصول على الأموال. هذه القضية نشرت بشكل واسع ومكثف في الصحف البريطانية.

الأطفال، أفلام مغامرات حيث يموت احد الممثلين، نعرف تماما أن الصغار يغمضون عيونهم عند أول خطر يظهر أو يبدو أو يلوح، إلى غاية اليوم الذي ينكسر فيه شيء ما. وكما الأحصنة التي نحضرها لمواجهة العنف، فان الأطفال كذلك ينتهون إلى المطالبة بالمزيد من العنف، لان العنف يتفوق على عاطفة الخوف والنفور.

بهذه العملية، نحن نخلق ونسهم في خلق وضعية مستحيلة. والحال إن دولة القانون تقتضي أولا وقبل كل شيء إقصاء العنف. وأقول أكثر من هذا، إن هذا هو التعريف الصحيح لدولة القانون. إنني لا أستطيع حسب القانون ان اضرب أحدا أو أي شخص آخر. ان حرية وحقوق يدي تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين في الدفاع عن أنوفهم، هذه هي الفكرة الأساسية لدولة القانون. ولكن في الوقت الذي نقبل فيه أن نحتزلها إلى الصفر أو إلى اللاشيء أو إلى العدم، فان النفور العام الذي يوحى به العنف، من أننا نخرب ونعرقل دولة القانون وان الاتفاق العام يقل، نكون قد شرعنا في تخطيط وتخريب حضارتنا.

سؤال: النقطة الثالثة في قائمتك، هي إذن تربية الأطفال.

جواب: واجبنا يفرض علينا ان نربيهم بشكل صحيح، تماما كما يحتم علينا ان نعلمهم القراءة والكتابة. بتعبير آخر، علينا أن نتجنب حدوث انتهاء المقاومات الطبيعية للعنف عند غالبية الناس.

سؤال: انه نوع من التدخل الأخلاقي، يثير الفضول جدا، لأنه صادر من قبل ليبرالي مثلكم ظهر في السنوات الأخيرة،

على سبيل المثال، في مقابل المدافعين عن المحيط والبيئة، بأنه مع فكرة حل المشاكل بواسطة سوق حرة كلية. إلا أن انخراط او تدهور وسائل الإعلام هو اثر من آثار السوق.

جواب: حرية السوق أساسية، ولكنها ليست مطلقة. إنها صحيحة بالنسبة للسوق، وكذلك لبقية الأشياء. لكن الحرية المطلقة عبث. لنأخذ عبارة كانط: ما نحن في حاجة إليه، هو مجتمع حيث حرية الفرد متعادلة مع حرية الآخرين. حريتي ليست متعادلة معك إلا عندما نرفض معا استعمال العنف. أنا لا أضربك وأنت لا تضربني. ترى إذن أن حريتنا محدودة. وإذا لم يكن الأمر كذلك أو إذا لم تكن الحالة كذلك، إذا كان احدنا يريد أن يضرب الآخر، في هذا الحالة يتدخل القانون. القانون يحمينا من العنف ومن الجريمة. هذه هي القاعدة وهذا هو المعيار، وهذه هي دولة القانون. فلو لم يكن هنالك أي شخص يرغب في القتل لما احتجنا إلى القانون. ولكن في الوقت الذي يكون فيه فرد يرغب في الضرب، فإننا في حاجة إلى هذا العنصر للتدخل وللتوسط. ولهذا السبب قلت انه اذا ما ربينا أطفالنا بشكل أفضل، ولجأنا إلى الرقابة كإجراء من بين الإجراءات الأخرى التي نلجأ إليها، فإننا نحصل على حرية أكثر. ولكن إذا ما نسيناها أو تخلفنا عليها أو أهملناها، فإننا سنحصل على حرية أقل. دولة القانون تتطلب "اللاعنف" LA Non-violence وهو النواة الأساسية. وكلما قمنا بواجبنا في التربية على اللاعنف، كلما وسعنا من دولة القانون، بمعنى تطبيق القوانين في ميدان النشر والتلفزة والاتصال او الإعلام الجماهيري. انه مبدأ بسيط جدا.

والفكرة هي نفسها او هي ذاتها: توسيع حرية كل واحد إلى أقصى حد ممكن في اطار الحدود التي تفرضها حرية الآخرين. ولكن اذا استمر الوضع كما هو عليه الآن، فإننا سنجد أنفسنا بسرعة، في مجتمع يصبح فيه الاغتياال والقتل عملة متداولة.

سؤال: انك تتحدث عن مبدأ سياسي وهو مبدأ أخلاقي في الوقت نفسه؟

جواب: علينا واجب أخلاقي إضافي نحو أطفالنا: علينا أن نعطيهم أفضل ما نملك، وان نمارس عليهم أحسن تأثير ممكن من اجل أن نسعدهم. إن هذا ليس بجديد، إن القواعد التي تسمح لي باستعمال كفي هي القواعد التي تسمح لك بحماية انفك. ان هذا مبدأ ليبرالي أساسي. إنني لا ابتعد عن الليبرالية عندما اشترط وألح على أن دولة القانون يجب أن تتسع للدفاع عن الأطفال، الذين هم اعز وأثمن وأغلى ما نملك.

سؤال: نعرف الآن الأولويات التي تضعها على جدول أعمال السياسة. يتعلق الأمر بموضوعات السلم والتحكم في النمو الديموغرافي والتربية على اللاعنف، وهي موضوعات تتطلب تعاون الجميع من دون تمييز او تفريق. بالنسبة لك هذه الموضوعات ليست لا يمينية ولا يسارية؟

جواب: نعم، ليست يمينية ولا يسارية. هذه الأولويات تين لنا ما يمكن أن يحل محل التمييز يمين/يسار. وهو ما يعني انه علينا ان نفكر فيما يجب ان نفعله حتى نحقق هذه الغايات. علينا أن نضع جانبا تطلعاتنا الفردية وان نركز على ما يجب أن تكون عليه تطلعاتنا جميعا، وليس على جزء خاص من المجتمع.

ولكن علينا خاصة، أن نطالب ان كان هنالك من اسميهم بالمعوزين، ومن هم هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون في ظروف صعبة والذين هم في حاجة الى مساعدة. إنني أفكر في المعوقين والمرضى العقليين على سبيل المثال. ان هذه العناصر كلها يجب ان تشكل قائمة الأولويات، طبعاً، يجب ان تكون مفتوحة للحوار والتشاور. وفي النهاية، يجب استبدال النظام المرعب الخاص بالأحزاب، والذي يجعل من النواب الذين يمثلوننا حالياً في البرلمان تابعين للحزب، ولا يوظفون جهودهم الا في المرتبة الثانية عندما يتعلق الامر بالشعب. في اعتقادي هذا النظام يجب إلغاؤه وعلينا العودة إلى وضعية حيث النواب او الممثلون يستطيعون القول في البرلمان: نحن نمثلكم ولا ننتمي إلى أي حزب. يجب إقامة مثل هذا النمط من التمثيل، الذي يوجد هنا وفي بلدان أخرى. وانه مع سقوط الماركسية فان لنا فرصة للمضي في هذا التوجه. أما بالنسبة للأولويات التي أشرت إليها، فإننا نأمل أن ننتظر او نجد حزباً، مهما كان، يقبلها ويعلن عن قبولها كما هي. وان يدفع بالأحزاب الأخرى إلى أن تتعاون لخلق وضعية جديدة.

سؤال: نعرف تصورك للتدخل الديمقراطي وكذلك قائمة أولوياتك. على هذا الأساس أو القاعدة، ما هو النموذج السياسي الذي تراه او تعتقد انه مناسب وملامح لمرحلتنا: النموذج الاجتماعي - الديمقراطي، الليبرالية، الاشتراكية الغربية أم أشكال سياسية أخرى تحددها؟

جواب: النموذج السياسي الجيد هو بالأساس النموذج الديمقراطي، ديمقراطية لا تهدف إلى إقامة هيمنة ثقافية. بتعبير آخر،

علينا أن نعمل من اجل السلم ومن اجل الأهداف الأخرى التي حدثت عنها، ولكن الخاصية او الميزة الأساسية للديمقراطية يجب أن تكون هي الحرية الثقافية للناس، وان لا يسيروا من الأعلى. وهو أمر غير بسيط، لأنه من اجل خلق مثل هذه الوضعية، يجب من بين ما يجب، تثقيف كبير للناس. يجب ان نعي بان التلفزة قتلت عددا من الآمال في مجال الثقافة. منذ شبابي، مرت الكثير من الأمور والأشياء المرعبة، كانت أسوء من الآن. الكثير من الناس لم تكن حرة، والكثير يموتون بالمجاعة، وخاصة النساء اللواتي ينحدرن من الطبقات الدونية، لم يكن لهن أي خيار أو أمل، لاشيء. الشابات اللواتي يعملن بوصفهن خادومات عند الخواص كان لهن توقيت مرعب ولم يكن لهن إلا يوم واحد للراحة كل أسبوعين، اثنتي عشرة ساعة من الحرية يقضينها خارج منزل سيدهن. مرة كل خمسة عشرة يوم، هذا اسوء من ان يكن عبيدا! هكذا كان الحال في أمريكا قبل 1914 وفي أوروبا حتى سنة 1920. نستطيع القول إذن اليوم، بأننا نعيش في عالم أفضل. إلا أن عالمنا مهدد بشكل من التربية الجنوني. اعتقد انه وفي هذه النقطة، علينا ان نتحرك، وانه في الوقت الذي نستطيع فيه وضع نظام تربوي مسئول حقيقة، نستطيع ان نعود فيه الى اليوم الذي كان فيه العنف استثناء. الا انه في الوقت الحاضر، وبحسب الوتيرة التي تحدث بها الأشياء، فان العنف أصبح أكثر فأكثر جزء من مشهدها اليومي وأصبح الاهتمام الوحيد لأكثر الناس.

سؤال: ولكن كيف ندفع بعملية سياسية تسمح بتحقيق هذه الأهداف التي أعلنتها أو أشرت إليها؟ أين نجد الطاقات الضرورية لذلك؟ كيف نحقق أو نصل إلى تحقيق موافقة الناس على هذه الأولويات؟ هل نلجأ إلى الاعتراض التقليدي الذي يعارض الليبرالية بـ: إنها ضعيفة جدا حتى نجعلها مقبولة عند القوى المعارضة، وعند المشاعر والرغبات والمصالح والقناعات المعارضة؟

جواب: على الاعتراض التقليدي، أجيب إجابة الليبرالية التقليدية: علينا أن نعترض على العنف. لنعبر هذا، على سبيل المثال: منذ ثلاثين سنة، كل الأحزاب كانت تطالب بعدم العنف. وكان لها نفس الطموح أو الأمل في عالم من غير عنف. إلا أن هذه الفكرة اليوم، التي كان الاتفاق عليها أمر بديهي، قد تم نسيانها. والمثال الإيطالي الذي ذكرته سابقا، يبين بوضوح وجلاء إن الأطفال والشباب يواجهون خطرا حقيقيا: وهو التعود على العنف. إنهم يعجبون ويستحسنون الذين يقتلون والذين يطمعون وجشعا. لأنهم لا يحبون أن ينتظروا، ولأنهم متلهفين. إنه شيء مهول ومرعب. وإننا نحن الذين خلقنا هذه الوضعية، وسمحنا بحدوث هذا. لقد رأينا وشاهدنا ما يحدث، ولكن كنا من الغباوة بمكان، بحيث إننا لم نعترض على ذلك. مازال هنالك وقت للتدخل، إلا أنه محدود. لا يمكن أن نستمر على هذه الكيفية والحالة.

سؤال: رجال الدين والكنائس يقولون: <<نحن لدينا جواب نقدمه، ولكن انتم ايها العلمانيون والليبراليون أو غيركم، ليس لديكم ذلك>>؟

جواب: إنني مع التعاون مع الأديان. وقبل كل شيء، إنهم يعرفون جيدا، هم كذلك، بأنهم لم ينجحوا في نشر أفكارهم. وإجمالا - اللهم عندما يسلكون مثل العراقيين والإيرانيين والأصوليين الإسلاميين الآخرين لأننا نرى ظهور أعمال عنيفة في هذه البلدان - يتعلق الأمر بأناس لهم استعداد للتعاون مع الآخرين. مع الذين يعلمون ان الإيمان الديني ينبثق من فكرة اللاعنف، وانه لمن المفيد ان يكون هنالك تعاون: بين المسيحيين واليهود بشرط ان لا يكونوا هم كذلك أصوليين.

سؤال: إذن تريد أن تقول أن الرؤية السياسية الليبرالية بالضرورة تسير معا الدين؟

جواب: لا اطرح الأمور بهذه الصورة. اعتقد أن الليبرالية يمكن ان تستغني عن الدين، ولكن يجب، بكل بدهاءة، ان تتعاون مع الجميع. بالتأكيد، المشكل، انه إلى حد الآن، وتقريبا جميع الناس تأثروا بشكل عميق بالماركسية. ومع سقوط الماركسية، فان الأمل في تجسيد وتحقيق الاشتراكية قد انتهى وضاع، الا انه بقيت فكرة تم تعليمها وتحفيظها وتلقينها منذ زمن طويل في المدارس، وهي ان الناس جميعا لا يرغبون ولا يبحثون الا عن المال والذهب والمواد الأولية، وان الناس جميعا أنانيون ويريدون ان يصبحوا أغنياء. وبحسب التأويل الماركسي للتاريخ، فان غاية كل فرد هو ربح المال، والحصول على أشياء جيدة، وامتلاك أسلحة وسلطة. هذه النظرة للتاريخ المجردة من كل أمل، لا تترك لنا من الميراث إلا أنانية قانطة في تصور الأشياء الإنسانية، وفكرة أن الأشياء كانت بهذه الصورة وستبقى كذلك دائما.

سؤال: ولكنه أيضا ليس من السهل مساندة ان خطر العنف يجد أصله فقط في التصور الماركسي للتاريخ وفي الأزمة التي يمر بها؟

جواب: هنالك مجموعة من العوامل. هذا التأويل الوقح، الخاص بالتعاليم الماركسية السابقة، تضاف إلى مظاهر العنف القائمة في المجتمع. يمكن لنا ان نتصور بسهولة الأثر الذي يحدثه كل هذا على الشباب. اعتقد انه في ألمانيا يمكن ان نميز ثلاث مراحل شكلت قاعدة التصور الحالي للتاريخ. المرحلة الأولى هي المرحلة الوطنية، التي أرادت ان تجعل من ألمانيا امة متفوقة على كل أمم العالم وان تحتل المكانة الأعلى التي تعود إليها بحكم القانون. نجد هذه الفكرة منذ هيغل الى غاية هتلر. وبعد هتلر، تبدأ المرحلة الثانية، مرحلة التأويل الماركسي. ثم تأتي المرحلة الثالثة، مرحلة التأويل الوقح. والشيء نفسه في المرحلة التي امتدت من هيغل الى هتلر، نعلم الأطفال في المدارس على أن ألمانيا يجب ان تهيمن على العالم، ونعلم مع الأسف أن العالم كان دائما محكوما بالسلطة والمال وانه سيكون كذلك دائما. انه لأمر عبثي. لان العكس هو الصحيح يكفي النظر إلى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية حتى نتأكد من ان 800 000 شخص ماتوا من اجل حرية الملونين.

سؤال: يظهر اليوم إن الخطر الكبير للعنف والحرب يأتي من الوطنية. كيف تنظر إلى التطلعات المتنامية للشعوب في إقامة دولها المستقلة، والتي نشاهدها حتى في أوروبا؟ هل ترى ذلك كخطر كانزلاق وتدهور للحضارة وتوجه

نحو خطر الحرب، ام انك تراه حق للشعوب المتجانسة في لغتها وانتسابها القبلي - الاثني وديانتها، في أن تكون لها دولة؟

جواب: المسألة الأساسية انه في عالم مكتظ كعالمنا، كل المشاكل المطروحة من قبل الوطنيات - التي يجب معالجتها حالة بحالة وفي كل تعقدها - يجب اعتبارها خطيرة. وفي هذه الحالة، فان فكرة دولة القانون هي المعرضة للخطر. وقبل كل شيء نقول، يجب حماية الأقليات، مع أننا لا نتحدث عنها دائما، حسب رأيي، في الحوار الأوربي حول الوطنيات، بالرغم من ان كل الأسئلة السياسية للوطنيات يكمن هنا. وفكرة الدولة - الأمة ذاتها مستحيلة التحقيق إذا لم نقبل بهذا المبدأ. ما علينا إلا ان نفكر ان أوروبا ما هي إلا نتيجة للهجرات العرضية التي جاءت من آسيا، من اجل فهم هذه الحقيقة. أوروبا هي شبه جزيرة آسيا التي توجهت إليها شعوب وأقوام لأسباب مختلفة، وعندما وصلوا إلى الأطلنطي، انقسموا، واختلطت بعد ذلك المجموعات المختلفة، وهو ما أدى إلى أن كل البلدان الاوربية بها أقليات ما عدا ألمانيا. لهذا السبب تبقى النقطة الأساسية هي حمايتهم. هذه هي الزاوية التي يجب أن تعالج به هذه المسألة. من غير المعقول أن تكون لكل الأقليات دولها. يجب وضع سياسات حماية، تستجيب لمتطلبات كل أقلية من الأقليات، خاصة في ما يتعلق بالتربية واللغة والدين.

لنرفض التاريخانية، كي يصبح المستقبل مفتوحا(*)

سؤال: لقد أوليت دوما أهمية كبيرة لمفهوم التاريخ، ولكن هجومك على التاريخانية L'Historicisme⁽¹⁾ كان عنيفا بشكل خاص. يعد هذا احد الأسباب التي تفسر انه في مرحلة من المراحل وفي بعض الأوساط الفكرية والثقافية، مثل ايطاليا بعد الحرب وكذلك في الستينيات والسبعينيات، كنت اقل ترحيبا هنا، مع بعض الاستثناءات. فعلى سبيل المثال إنني عندما قرأت بعض نصوصك في شبابي كنت معجبا ببعض أطروحاتك ولكن كنت انفر من مناهضتك للتاريخانية. فنقد الأنظمة الشمولية والطفيلية تبدو لي مقنعة، ولكن لم استطع تحمل انتقاداتك المروعة للتاريخانية أو بالأصح مآخذك المروعة للتاريخانية واكثر من هذا للماركسية. قبل كل شيء، كنت أقول في نفسي، يمكن كثيرا ان نكون تاريخانيين وديمقراطيين.

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

(1) التاريخانية: تفيد معاني كثيرة منها: مرحلة في كتابة التاريخ في المانيا مثلثتها اعمال "رانك". كما تعني ان السياق التاريخي هو المحدد للفكر، وهو ما ذهب اليه ارنتست ترولتش. ولقد استعملها كارل بوبر بمعنى ان التاريخ عبارة عن تطور لعملية معروفة سلفا، تسمح بتحديد المستقبل. وتعتبر الماركسية في نظره مثالا نموذجيا للتاريخانية.

جواب: التاريخانية خطأ من أقصاها إلى أقصاها. يرى التاريخاني التاريخ مثل مجرى الماء، مثل النهر الجاري، ويعتقد انه يستطيع أن يتوقع أين يمر الماء. يعتقد التاريخاني انه أكثر ذكاء، انه يرى الماء ويتصور أو يتخيل انه بإمكانه أن يتكهن بالمستقبل. هذا الموقف، على المستوى الأخلاقي، خاطئ كلية. بإمكاننا ان ندرس التاريخ كما نشاء، لكن هذه الفكرة الخاصة بالنهر ليست أكثر من مجاز ولا علاقة لها بالواقع وبالحقيقة. يمكن ان ندرس ما مضى، لكن ما مضى انتهى، وانطلاقاً من هنا، فاننا لسنا في المستوى الذي يسمح لنا بالتنبؤ بأي شيء كان وبالتالي نتابع الاتجاه، علينا فقط وببساطة أن نتحرك وان نحاول جعل الأشياء أفضل وأحسن. فاللحظة الحاضرة هي اللحظة التي انتهى فيها التاريخ، وليس بمقدورنا ان ننظر الى المستقبل ونحن نعتقد انه بإمكاننا أن نتكهن به بفضل المجرى او الاتجاه. لا يمكن لنا ان نقول: كنت اعرف أن المجرى سيمر من هنا.

سؤال: صحيح إن الأشخاص الذين يقولون أو يصرحون: >>

كنت اعرف سلفاً بان هذا سينتهي كذلك << غير مرغوب فيهم. ولكن في الوقت نفسه كنت دائماً أتساءل وأنا اقرأ سيرتك الذاتية وكذلك منذ بداية حوارنا، عندما التقيت مع الاخوة "ايسلر Eisler" وكان عمرك سبعة عشرة سنة، ما هو الأثر وأنت ترى اليوم أن الكثير من الأحداث تسوغ نقدك الذي شكلته منذ فترة طويلة، لقد قدمت نقدا جذريا للشيوعية وأنت كنت تقريباً شاباً. منذ عقود كان بإمكانك أن تقول: معي الحق وسيكتشفون

ذلك عاجلا أم آجلا. واليوم أمام أحداث الأشهر الأخيرة
أليس لديك الرغبة في أن تقول بدورك: <<كنت اعرف
ان النهر سيمر من هنا؟>>

جواب: إنني سعيد لان الأشياء حدثت كذلك، ولكن لا اشعر
بالسعادة لأنني استطعت أن اعرف طوال هذا الوقت أين
يكن الخلل. لا يهم. يجب الآن التفكير فيما يجب فعله، وان
نبحث عن ما هو أفضل وعن ما هو واجبنا. فما فات قد
فات. يمكننا بالتأكيد أن نستخلص العبر والدروس، ولكن لا
يجب ان نقوم بإسقاطات من اجل استباق المستقبل. لان هذا
له علاقة بالانحطاط الرهيب للفن. أريد أن أقول ان كل
الذين رؤوا الآثار الفنية الكبرى في الماضي، مثل آثار "مايكل
انجلو Michel-Ange"⁽¹⁾، سيعتبرون أن الفن في حالة تدهور
وانحطاط. وانه لمن البديهي أن مايكل انجلو كان وسيبقى
الأعظم ولا يجب أن نتظر ما يشبهه. ولكن هنالك انحطاط
وتدهور، هذا مؤكد، فلماذا؟ لان كل الفنانين يخلقون من
حواله، ويحاولون ان يصبحوا رقم واحد في المستقبل. انهم
يسمعون، بكيفية ما، التاريخانيين الذين يتحدثون عما سيقع
في المستقبل، ويحاولون متابعة الاتجاه أو المجرى بدلا من أن
ينتجوا أعمالا قيمة في الوقت الحاضر. والأكثر من هذا إنهم
مهتمون بأنفسهم أكثر من اهتمامهم بنوعية عملهم. وأيضا
إنهم يصغون للأنبياء السيئين ولل فلاسفة السيئين الذين
يحاولون التكهن بالمستقبل. الكل يجتهد لكي يكون سابقا

(1) مايكل انجلو: (1475 - 1564)، رسام ونحات ومهندس ايطالي، من اشهر
اعماله: لوحة يوم القيامة، وكاتدرائية القديس بطرس.

لزمانه، في حين لا احد يستطيع ان يتنبأ بالمستقبل لان لا احد يعرف المستقبل. انظر إلى ماركس على سبيل المثال: كان يعتقد ان كل الآلات سيكون لها محرك بخاري وان كل المحركات ستصبح كبيرة شيئا فشيئا. إن آلة مثل آلة حلاقي الكهربائية لم تكن لتخطر بباله. والظاهر أننا نسير نحو آلات صغيرة شيئا فشيئا وليس إلى آلات كبيرة وأنها موجهة لاستعمالاتنا الشخصية. كان ماركس يرى من منظور الإنتاج فيما يتعلق بالأشياء المادية، في حين أن التطور حدث من منظور الاستهلاك. إن الثورة الكبيرة التي لم يستطع ماركس إدراكها جيدا ويفهمها بشكل جيد هي السكك الحديدية التي سمحت للناس أن يتحركوا ويتنقلوا. ولم تصنع السكك الحديدية والقطارات من أجل الإنتاج، فالعربات الأولى لم تستخدم لشحن البضائع او السلع ولكن لنقل الأشخاص. إننا نتحدث عن "العربة (chariots) coaches" وهنا ما زلنا نسميها كذلك أي منذ ان كانت تجر بالخيول التي تم تعويضها بالمحركات البخارية التي سمحت بتشكيل قطارات تتكون من عربات عديدة ومن تخفيض أسعار النقل. إنها خدمة موجهة إلى الأشخاص الذين يرغبون في زيارة أشخاص آخرين ومدن أخرى. هل تفهم ما أريد قوله؟ هذه كانت إحدى أكبر الثورات التي لم تحدث سابقا وقبل هذا التاريخ. ولكن ماركس لم يراها كذلك، أي لم يراها على أنها ثورة.

ثم لاحقا، فإن هذه العملية قد استمرت مع "الثورة الفوردية la révolutions fordienne" وذلك باقتراح من "هنري فورد

Henri Ford "لسيارات ملائمة للعمال وليس فقط لأصحاب الملايين. وإذا كنت أتحدث عن كل هذا، فلان الأمر يتعلق بثورات لا احد يستطيع أن يتوقعها. وبالتأكيد لم يتوقعها ماركس. وكذلك اليوم لا احد يستطيع أن يعرف الاكتشاف الكبير القادم. لقد كانت إحداها هي التلفزة، التي تحولت إلى شيء مرعب في الوقت الذي كان من الممكن ان تكون نعمة.

سؤال: انك فعلا لا تستطيع ان تتحملها ...

جواب: إنني لا املكها ولا أريد ان تكون في بيتي.

سؤال: لقد وصلنا إلى طرح موضوع الثورات التكنولوجية، وذلك من اجل ان نقول إن هدف التاريخانيين هو معرفة مجرى النهر، فكرة لا أساس لها من الصحة.

جواب: إنها ببساطة فكرة غبية، لأنها محاولة لاستكشاف تاريخ المستقبل في حين ان خاصية التاريخ انه يضعنا دائما امام ثورة غير منتظرة وغير متوقعة مثل ثورة الإلكترونيك.

سؤال: ولكن أليس من الإنساني جدا، أن نطرح مشكلة معنى التاريخ أو بتعبير آخر أن نطرح مسألة فلسفة التاريخ. إذا كان العلم يسمح بالتساؤل عن أبعاد الكون، فلماذا لا نطرح مشكلة معنى التاريخ، وإذا كان يتطور ففي أي اتجاه يسير؟

جواب: اعتقد أن هذا خطأ فكري. فلا حاجة لنا لمعنى التاريخ. يمكن لنا أن نعجب بالتاريخ لأنه غني بالأحداث التي تستحق الإعجاب وبأشخاص رائعين. ويمكن أن يعلمنا ما يجب ان نخاف منه. ومن بين الأشياء التي يجب أن نخاف منها، هنالك

ما تسميه بـ "معنى التاريخ" لانه يزج بنا دائما في اتجاهات خاطئة.

سؤال: في روسيا، يتحدثون كثيرا عن ما يسمونه بـ <<نقطة الدخول Le point d'entrer>> الذي يبين بداية الخطأ <<erreur>>. هذا الحوار يظهر انه تجاوزته الأحداث، ولكن يتعلق الأمر بتعيين اللحظة الأولى لعملية سلبية بغرض إيجاد <<نقطة الخروج point de sortie>>. أريد ان اعرف رأيك في هذا الموضوع، على الأقل لأنك من الذين يضعون أصل المشكل في النقطة البعيدة في الزمن وفي أقصى نقطة من الزمن.

جواب: كما سبق وان قلت لك، إن الماركسية خطأ وعمليا كانت خطأ منذ البداية، لأنه منذ البداية، كانت الفكرة الماركسية تقتضي البحث عن العدو وليس البحث عن الأصدقاء الذين من الممكن أن يساعدوا في إيجاد حل لمشاكل الإنسانية. أنت وأنا، على سبيل المثال، مهتمون بفكرة التعاون من اجل ان نساعد الناس، حتى يستطيع النوع الإنساني أن يجد حلولاً جيدة لمشاكله الأساسية. ماركس كان يبحث عن العدو الذي يقضي عليه، وهكذا ابتدع الرأسمالية كعدو يجب قتله. ليس هنالك نقطة دخول يجب البحث عنها في مكان آخر. الخطأ كان هنا ومنذ البداية. انه الكره بدلا من المسؤولية. كل الذين لهم مطامح كبيرة ويكرهون العالم لا يستطيعون تحقيقها، يرتكبون هذا الخطأ الأساسي. وماركس ارتكبه منذ البداية وذلك يجعله الرأسمالية، العدو الذي يجب القضاء عليه. وإذا كنت تعتقد انه كان من الممكن ان يمر كل شيء بشكل

جيد وانه في مرحلة لاحقة من العملية ستم الأشياء بطريقة
مغايرة، فانك تخدعهم. لا شيء هناك.

سؤال: اعرف انه بالنسبة إليك، الخطأ الأساسي لماركس يعود إلى
أصل تفكيره ذاته. ولكنني أتساءل إذا كنا لا نستطيع أن
نعود إلى ابعد من ذلك إلى أفلاطون وأرسطو.

جواب: نعم صحيح من الممكن ان نذهب بعيدا الى قبل ماركس.
لقد عبرت عن رأيي في التاريخانية، ويمكن ان نعود إلى أصول
النظرة "الغائية للتاريخ Téléologique" وإلى "الشمولية
Totalitarisme"⁽¹⁾ وإلى "أسطورة القدر Mythe du destin"
، ولكن هذا يؤدي بنا مباشرة إلى ما كتبه في "المجتمع
المفتوح وأعداؤه".

سؤال: إذن لندعو القراء إلى كتابك هذا بدلا من الغوص في
التاريخ البعيد، لنعد إلى الأسئلة الحالية: مثلا الديمقراطية.
الشيوعية سقطت وهاوت وهنالك الآن إجماع واسع حول
هذه الفكرة. ولكن ومع الإقرار بالمبادئ المجردة الأساسية
للحرية التي تنفق حولها، فان للديمقراطية مشاكل عديدة
وتناقضات وصعوبات جمة. وهنالك مفهوم يتكرر دائما في
أعمالك انه مفهوم المفارقات الديمقراطية، فماذا يعني؟

جواب: انه سؤال هام جدا في وقتنا الحاضر. فإذا ما أخذنا بالترجمة
الحرفية لكلمة الديمقراطية في اليونان، فإنها تعني سلطة
الشعب، وهذا مفهوم يبعد بعض الشيء النقطة الأساسية،
لان المشكل الحقيقي للديمقراطية لا يطرح هنا. انه يتعلق بمنع

(1) الشمولية او الديكتاتورية المطلقة، نظام سياسي ارتبط بالستالينية والفاشية والنازية.

إقامة الديكتاتورية أو بتعبير آخر، منع انعدام الحرية، أو منع قيام غلط من السلطة ينفي دولة قانون. هذا هو المهم. وفي الحقيقة، إن اليونانيين كانوا قد فهموا ومنذ القدم، أن تحقيق الديمقراطية لا يعني وضع الشعب في السلطة، وإنما العمل بقوة على اجتناب خطر الطغيان. من أجل هذا ادخلوا فكرة "الإبعاد L'Ostracisme" خلال ثمانين سنة. ولم يدخلوها إلا لأنهم كانوا خائفين من أن يبرز طاغية يتمتع بشعبية كبيرة، أو ديكتاتور شعبي وديماغوجي وشعبي، كما نقول اليوم، بمعنى شخص يمكن أن يصبح أكثر شعبية ويحتكر السلطة بسبب الأغلبية. فكرة الإبعاد، تسمح باستبعاد كل شخص من الوطن، يمكن أن يصبح شعبيا بشكل كبير. هذه الفكرة لا تطرح كما تطرح فكرة من يدان بسبب ارتكابه خطأ أو جرم، أو الذي يتم محاكمته بسبب فعل من الأفعال، إن الأمر يتعلق بضرورة التحفظ والاحتياط. إن هذه الطريقة تستبعد أن يكون في الوطن شخص له شعبية كبيرة. إنه يكفي قراءة الخطاب الجنائزي لـ "بركليس"⁽¹⁾، الذي كتب بمناسبة موت "ثيوسديد"⁽²⁾، من أجل أن نفهم ماذا يعني هذا الاحتياط. وكما قال ذلك ذات مرة "شيرشل"⁽³⁾، في جملة أصبحت مشهورة، الديمقراطية هي أسوأ أشكال الحكم باستثناء جميع الأشكال الأخرى التي هي أسوأ منها.

-
- (1) بركليس: (495 - 425 ق.م)، سياسي وخطيب وقائد يوناني محنك.
(2) ثيوسديد: (460 - 395 ق.م) مؤرخ يوناني اشتهر بكتابه: تاريخ حرب البلونيز.
(3) ونستون تشرشل: (1874 - 1965) زعيم سياسي ورئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

الديمقراطية في ذاتها لا شيء مفيد فيها وكل ما هو مفيد يأتي من جهات أخرى، لا منها. إنها ليست أكثر من وسيلة لتجنب الطغيان، لا أكثر ولا أقل. بالطبع، تعني الديمقراطية أن الجميع متساوون أمام القانون وأن لا أحد يجرم أو يدان ما لم تثبت عليه الأدلة، إلخ. هذه المبادئ الأساسية جزء لا يتجزأ من دولة القانون. ولكن لا وجود في الديمقراطية، لمبدأ يجعل للأغلبية الحق، لأن الأغلبية قد ترتكب أخطاء فادحة كأن تنصب طاغية، وأن تنتخب طاغية، كما يحدث دائما. لم يحدث في ألمانيا أن حصل هتلر على الأغلبية، لكن في النمسا تم اختياره بنسبة أربعة وتسعين في المائة من نسبة الناخبين.

سؤال: يمكن لنا إذن أن نقول أن الديمقراطية هي كيفية حل النزاع السياسي وذلك بتجنب الطغيان والديكتاتورية. ولكن هذا النزاع، في وقتنا الحاضر، ألا يعني ذلك أننا نجد أنفسنا دائما أمام يسار ويمين؟

جواب: سبق لي وأن أجبت على هذا السؤال.

سؤال: لقد أجبت بأنه، وبحسب رأيك، أن الوقت قد حان لتجاوز النزاع الأيديولوجي ولكنك لم تتحدث عن دور اليمين واليسار، الآن مادامنا نعتبر أنه عمليا قد انتهت المواجهة الأيديولوجية بين الشيوعية ومناهضة الشيوعية، فما هو رأيك؟

جواب: اعتقد أن جوابي على هذا السؤال متضمن فيما قلته. الوظيفة الأولى للييسار هي مساندة المعوزين. هذا المبدأ مازال مقبولا. لكن ما هو مزعج حقا، هو اندفاع اليسار في طريق خاطئ،

وإصراره عليه لأسباب أيديولوجية، ويتمثل ذلك في اعتباره المعوزين بمثابة بروليتاريا او عمال، حتى عندما كفوا عن أن يكونوا كذلك.

سؤال: وعليه، ومن اجل ان نختتم، ما هي مهمات اليسار في المستقبل القريب؟

جواب: يجب أن ننظر من حولنا وان نسال من هم المعوزون. إنني أساند وادعم بان الفئة الوحيدة التي هي في الوقت الحاضر، يمكن اعتبارها كذلك، هم الأطفال. وحتى أكون واضحا جدا، أقول إن الراشدين يرتكبون جرائمهم أمام أعين الأطفال. هذه هي الوضعية التي استحدثناها. أي كل ما يجعل من الانحراف والإجرام، يتخذ صبغة المثل وقيمة النموذج أمام الأطفال. نحن بصدد نسيان بان كل الحيوانات تتعلم بالمثل، ومن خلال ملاحظة ما يجري في محيطها كي تفعل نفس الشيء. لتتحرك في الوقت المناسب.

القسم الثاني

الدراسات

1

ملاحظات حول الدولة الديمقراطية بين النظرية والتطبيق (*)

اولا. هل هنالك علاقة بين الآداب والعلم والديمقراطية؟ وجد
بأثينا، ابتداء من سنة 530 ق.م.، سوق ليس لها مثيل في مكان آخر:
لقد كانت سوقا حرة للكتب، ومكانا تباع فيه الكتب المخطوطة،
معروضة على شكل لفائف من البردي. أول الكتب التي طرحت
للبيع كانت الملحميتين الشعريتين العظيمتين لهوميروس⁽¹⁾: الإلياذة
والأوديسا.

وبحسب كتابات ششرون "Ciceron"⁽²⁾، فإننا ندين بتسجيل
وتدوين أشعار هوميروس إلى طاغية أثينا بيزيستر⁽³⁾،
إنه هو من بين آخرين الذين أسسوا التمثيليات الدرامية، التي نسميها
اليوم بالمرسح. وربما، كان أول ناشر لهوميروس، وهو الذي أدخل
المادة الضرورية للكتابة - البردي المصري - واشترى العديد من
العبيد المتعلمين القادرين على استنساخ أشعار هوميروس. لقد كان

(*) ترجمة د. لخضر مذبوح.

(1) هوميروس: (حوالي 850 ق.م بحسب هيرودوت)، شاعر اغريقي مشهور
وصاحب الإلياذة والأوديسا.

(2) شيشرون: (106 - 43 ق.م)، خطيب روماني مشهور.

(3) بيزيستر: (حوالي 600 - 527 ق.م) سياسي وحاكم يوناني، يعتبر آخر الطغاة
الاثينيين.

بزيسترات غنيا، وكان يمنح بمناسبة الاحتفالات العامة للأثينيين تمثيليات مسرحية وغيرها من التظاهرات الثقافية. وفيما بعد لعب أثينيون آخرون، مقالولون، دور الناشرين.

لقد كانوا منجذبين في هذه المدينة بواقع أن الطلب على أعمال هوميروس، كان طلبا لا ينضب: الجميع يتعلم القراءة مع هذه النصوص، والجميع يقرأ هوميروس، وقرىبا سيصبح مؤلفه في نفس الوقت إنجيل وأبجدية أثينا، وبسرعة فائقة نشرت كتب أخرى بدورها.

لا يجب أن ننسى أبدا أنه بدون سوق للكتاب، لا يمكن أن يكون هناك نشر. إن وجود مخطوط (أو كتاب مطبوع اليوم) في مكتبة لا يمكن أن يعرض عرضه في السوق. وفي أوروبا لمدة طويلة (أعتقد، ما يقارب القرنين) لم توجد سوق للكتاب إلا في أثينا، لقد كانت مدينتي قرينا وطيبة أول مدينتين تحذوان حذوها.

لقد كان هناك طبعا شعراء من قبل، وحتى كتابات، لكن لم تتطور الآداب إلا في أثينا، (لأن هذا يفترض وجود مؤسسة نشر) وأنه ازداد عدد الكتاب والمؤرخين وعلماء السياسة والفلاسفة والعلماء والرياضيون.

القليل فقط من بينه، مثل ثيوسيدث ولد هناك، لكنهم جميعا أجنب عن هذه المدينة، التي مارست عليهم جاذبية لا تقاوم. كان من بين الكتاب الذين وفدوا على أثينا، والذين نشروا كتبهم فيها، العالم والفيلسوف "أنكساغوراس"⁽¹⁾، و"هيروودوت"⁽²⁾ الأصغر عنه

(1) أنكساغوراس: (500 - 438 ق.م)، فيلسوف يوناني، قال بالعقل الكلي.

(2) هيروودوت: (484 - 425) مؤرخ يوناني اشتهر بكتابه تاريخ هيروودوت الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص التي لاقاها في ترحاله حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

ببضع سنوات منه، وكان أول وأعظم مؤرخ. لقد وفد كلاهما من آسيا الصغرى، ولجأ إلى أثينا لأسباب سياسية. أعتقد أن هيرودوت لم يكتب مؤلفه الكبير بنية نشره، عكس أنكساغوراس في كتابه "حول تاريخ العلم الطبيعي"، الذي كان متواضعا ومحدودا.

ثانيا. من أول كتاب منشور في أوروبا إلى ثورة غوتنبرغ "Gutenberg"⁽¹⁾: الاعجوبة التي كانت عليها أثينا في القرن الخامس ق م على الصعيد الثقافي، تفسر في جزء أكبر، فيما أعتقد، في خلق سوق للكتب، ويفسر أيضا الديمقراطية الأثينية. وبديهي جدا، فإن فرضية طرد الطاغية "هيبياس" من أثينا سنة 510 ق م، وتأسيس الديمقراطية، حدثان مرتبطان بتأسيس سوق الكتاب، ليس قابلين للبرهان، لكن الكثير من العناصر تجعلنا نعتقد أنهما كذلك.

فن القراءة والكتابة اللذين انتشرا بسرعة، والشعبية الكبيرة لهوميروس، وعلى محيط الكتاب هنالك المسرحيين الأثينيين والرسامين والنحاتين، والأفكار العديدة التي كانت تناقش، والتطور الفكري، كلها وقائع لا يمكن إنكارها. لكن حتى ولو سلمنا أن تأسيس الديمقراطية، استطاع أن يكون مستقلا عن هذه الاشياء، التي كانت بدون شك متأثرة بخلق سوق الكتاب، والنجاح الذي عرفته هذه الديمقراطية الاثينية الشابة خلال حروب التحرير ضد الإمبراطورية الفارسية العظمى، هي بكل تأكيد مرتبطة بهذا السوق.

لا يمكن تفسيرها إلا بالوعي الجديد لدى الأثينيين بذواتهم، الذي خول للأثينيين التراث الثقافي والتربوي الخارق للعادة واللذين

(1) غوتنبرغ: (1400 - 1468) مكنشف الطباعة، التي تعد ثورة في عالم الثقافة والكتاب على وجه التحديد.

تشكلا كذلك بواسطة حماسهم وتذوقهم للجمال، والوضوح في الفن والشعر.

ومما يثير الفضول دائما، أنه عند إختراع "غوتنبرغ" والتوسيع الكبير لسوق الكتاب الذي تبعه. قاد هذا كله إلى ثورة ثقافية مماثلة: المذهب الانساني، مع إعادة إحياء الآداب القديمة، كل الفنون ازدهرت، ومولد علم طبيعي جديد بإنجلترا، قاد الاصلاح إلى ثورتين: ثورة 1648 - 1649 الدموية، وثورة 1688 السلمية، التي سجلت بداية التطور العادي للبرلمان الانجليزي نحو الديمقراطية. في هذه الحالة فإن الصلة ظاهرة للعيان بوضوح.

ثالثا. انتصارات ومساوئ الديمقراطية الاثينية: تعود المعجزة الاثينية إلى الأحداث المدهشة، الثقافية والسياسية والعسكرية للقرن الخامس قبل الميلاد، وإلى بداية القرن الرابع ق م، اللذين أعقبا خلق سوق الكتاب. وتصب هذه الاحداث في المستوى نفسه للتطور السريع لآداب، وهي في نفس الوقت، منقطعة النظير ومثالية. هذه الاحداث تتضمن حربين، دامتا كليهما ثلاثين سنة تقريبا. خلال الحرب الأولى تحطمت أثينا، لكنها انتصرت، وفي الثانية منيت بهزيمة ساحقة. وهذا عرض كرونولوجي مختصر للوقائع الأكثر أهمية: 507: تأسيس الديمقراطية الاثينية. 493: التسليح وإنشاء الاسطول تحت قيادة "ثيمستكول Themistocle"⁽¹⁾. 409: "معركة المارتون Bataille de Marathon". 480: أصبحت أثينا مهجورة ومحطمة من قبل الفرس. المقاومة تعتمد أساسا على الأسطول. معركة "سلامون Salamine". 479: معركة "بلاطاس Platees وميكال Mycale".

(1) ثيمستكول: (518 - 462)، سياسي واستراتيجي اثيني، كان له الدور الحاسم في تحقيق النصر في الحرب الميدانية الثانية.

يطلب اليونانيون المساعدة من الأيونين المهددين في آسيا الصغرى، وهو ما أدى إلى إنشاء الرابطة البحرية بين أثينا وديلوس، وإلى ما يسمى "إمبراطورية بحر إيجه" وإعادة بناء أثينا. إبتداء من 462: يبدأ عصر بيريكليس. الأكروبول: معبد "البرتينون Parthenon". وابتداء من 431: تبءء حرب "البيليونيز". 429: مرض الطاعون، يموت بيريكليس بالطاعون. الحرب تتسع وتصبح أكثر دموية. 413: كارثة بصقلية: إبادة أسطول وجيش أثينا. 411: انهيار الديمقراطية الأثينية. 404: انتصار اسبرطة على أثينا وإقامة حكومة عميلة خاضعة لأسبرطة، وخلال ثمانية أشهر، تقتل هذه الحكومة الارهابية المعادية للديمقراطية، عددا من الأثينيين يفوق العدد الذي شهدته خلال العشر سنوات الأخيرة من الحرب الأكثر ضراوة وهكذا ينتهي تاريخ الحرب البيلوبونيسية على العموم. وهو ما يعطي بسهولة الانطباع بنهاية الديمقراطية الأثينية، لكن هذا الانطباع خاطئ، لأنها لم تكن النهاية.

فخلال ثمانية أشهر هزم الطغاة الثلاثون، من قبل مجموعة من الأثينيين الديمقراطيين خلال معركة "يري Pirée" ووقعت معاهدة سلام بين اسبرطة والديمقراطية الأثينية. لقد نجحت إذن أثينا من أهوال حرب مرعبة ومن خيانة بعض المواطنين المشهورين. وابتداء من هذا التاريخ، ولمدة تزيد عن نصف قرن، اعتبر أعداء الديمقراطية الاثينية أنها لا تهزم. غير أنها مع ذلك، اقترفت أخطاء رهيبة، وليس فقط أخطاء تكتيكية او استراتيجية، وإنما جرائم ضد الانسانية، مثل تحطيم جريزة "ميلوس"، التي هاجمتها أثينا على ما يبدو دون أن يكون هناك استفزاز مباشر، لقد قتل كل الرجال والنساء والاطفال، وتم بيعهم عبيدا.

ما قيمة الحكم الظالم ضد سقراط (خلال محاكمة سياسية كان فيها المتهّم (بكسر الهاء) رئيس حزب إلى جانب هذه الجريمة المرعبة؟ ثيوسيدس الجنرال الأثيني، يصف هذا الحادث بشكل دقيق، لما كان: القرار الوقح، الصلف، الذي لا يغتفر، لأغلبية كانت تعرف جيدا ماذا تفعل والتي كان يجب معاقبتها على هذا الخطأ، ولقد كان هناك العديد من القضايا المشابهة لهذه.

هذه القضايا لا عذر فيها، لكن عن طريق الصدفة، كانت هناك قرارات أخرى نقلها إلينا ثيوسيدس، وهكذا "ميتلان Mytilene" قد نكثت ميثاق التحالف مع أثينا، وتمردت، ولكنها هزمت من قبل أثينا. أرسل الأثينيون باخرة بقيادة جنرال مكلف بقتل كل سكان ميتيلان، لكن في الغد ندم الأثينيون على ذلك، فاستدعيت جمعية شعبية كما وصفها ثيوسيدس. يلقي ديوديت خطابا يدعو فيه للرأفة والحلم، التصويت لم يمنحه إلا أغلبية صغيرة، لكن أرسلت مباشرة باخرة تتعقب الباخرة الأولى، وربان الباخرة، أسرعوا التحذيف ليلا ونهارا بدون كلل، حتى وصلوا في الوقت المناسب لإلغاء الأمر السابق، وهكذا نجحت ميثيلين بأعجوبة من الفناء، كما كتب ثيوسيدس.

رابعاً. لم تكن الديمقراطية أبدا حكم الشعب، لا يمكنها ولا يجب أن تكون كذلك لقد أدركتم، فيما أعتقد، أن الديمقراطية تثير مشكلات ضخمة، لقد كانت في البداية ولا زالت إلى حد الآن المشكلات الأكثر أهمية، والأكثر صعوبة هي من أي نظام أخلاقي. واحدة من هذه المشكلات تثير دائما الغموض، والمأخوذة على أنها مسألة أخلاقية في حين، هي ليست إلا مسألة كلمات محضّة، وهي التالية: "الديمقراطية" تعني "حكم الشعب" وهذا

يجعل الكثير من الناس يعتقدون أن هذا المصطلح ضروري لنظرية أشكال الدولة التي نعرفها اليوم في الغرب، بـ اسم "الديمقراطيات".
أنشأ اليونان أسماء مختلفة لمختلف أشكال إدارة الدولة،
لأنهم كانوا يريدون التساؤل عن: أشكال الحكومة الممكنة، التي
كانت جيدة أو سيئة أو أفضل أو أسوأ. وميّزوا هكذا، بين
خمسة أشكال من الحكومات، تبعا للصفات الأخلاقية للقادة،
واستعملت هذه الفكرة فيما بعد من قبل أفلاطون، وتحولت إلى
النسق التالي:

1 - 2 - الملكية: حكم رجل واحد خير أو طيب، وشكلها
الفاسد هو الطغيان، حكم رجل واحد شرير أو سيء.

3 - 4 - الأرستقراطية: حكم بعض الرجال الأخيار أو
الطيبين، شكلها الفاسد هو الأوليغارشية، حكم بعض الرجال
الاشرار والسيئين.

5 - الديمقراطية: حكم الشعب، حكم العدد الأكبر، حكم
العامة. في هذه الحالة بالذات، يقول أفلاطون لا يوجد إلا شكل
واحد: وهو السيئ، لأنه يوجد دائما داخل العامة عدد كبير من
السيئين والأشرار.

من المهم جدا بحث الإشكالية التي تضم بالفعل هذا النسق، حتى
ندرك أن أفلاطون ينطلق من هذا السؤال الذي يبدو ساذجا وهو
"إلى من يجب أن تعود قيادة الدولة؟" من يجب أن يحكم؟ نستطيع
بكل تأكيد أن نطرح هذا السؤال في دولة صغيرة مثل الدولة -
المدينة الأثينية، التي يعرف الناس بعضهم بعضا. وزيادة على ذلك
نلاحظ أنه على مستوى ما - بدون شك لاشعوري - يبقى هذا

السؤال اليوم في قاعدة النقاش السياسي، إن ماركس ولينين⁽¹⁾ وموسوليني⁽²⁾ وهتلر، وأيضا معظم رجال السياسة الديمقراطيين، فكروا بدون كلل في الاجابة على السؤال من يجب أن يحكم؟ لقد كانت اجابة أفلاطون "الأفضل هو الذي يجب أن يحكم" وهي اجابة أخلاقية واضحة. ماركس ولينين قالا "إنهم البروليتاريون الذين يجبوا أن يحكموا"، وليس كما هو الحال الآن الرأسماليون، ويجب أن تكون لهم قيادة الدولة، يجب أن يمارسوا حكما ديكتاتوريا!، في هذه الحالة العنصر الأخلاقي مستتر قليلا، لكن من الطبيعي فان القصد موجه نحو البروليتاريون الطيبون (الأخيار)، الذين يجب أن يحكموا وليس الرأسماليين الأشرار.

وليس من الضروري ان افصل القول حول هتلر، لان اجابته ببساطة تقول: "أنا" ومن الواضح انه مثله مثل سابقه، كان يفكر أساسا في السؤال "من يجب أن يحكم". منذ حوالي خمسين عاما اقترحت رفض هذا السؤال وشطبه كلية لانه يتعلق بمشكلة خاطئة، قادت إلى حلول خاطئة. اذ تبدو هذه الحلول وكأنها أملاها أمر أخلاقي، بيد أنه من وجهة نظر أخلاقية، غير أخلاقي إلى أبعد الحدود، لانه يعتبر الخصوم السياسيين، سيئون أخلاقيا وأن الحزب الخاص هو الأفضل، وهو ما يقود إلى الكراهية وإلى التشديد على السلطة، عوض الانكباب على تحديدها.

-
- (1) فلاديمير ايليتش لينين: (1870 - 1924)، قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية ومؤسس المذهب اللينيني السياسي. كان أول رئيس للاتحاد السوفيتي.
- (2) بنيتو موسوليني: (1883 - 1945)، سياسي ايطالي، مؤسس الحركة الفاشية، تولى حكم ايطاليا بوصفه رئيسا للوزراء سنة 1922. في سنة 1939 تحالف مع هتلر وخاض الحرب العالمية الثانية حليفا له.

لأجل هذا أقترح استبدال سؤال افلاطون "من يجب أن يحكم؟" "بسؤال آخر مختلف كلية" "هل توجد هناك أشكال حكومية تسمح لنا بالتخلص من الحكومة السيئة، وتسبب ضررا للبلاد؟" أعتقد أن هذه الأسئلة هي ضمنا تدخل ضمن قاعدة "الديمقراطيات" وبالتالي فإنها مختلفة جدا عن سؤال أفلاطون.

نحن الذين نسمى بالديمقراطيين، نعتبر الديكتاتورية أو الطغيان شيء سيء أخلاقيا، ليس فقط صعب الاحتمال، لكن أخلاقيا لا يطاق، لأنه غير مسئول. إن واقع تحملها، يعطينا الشعور بالقيام بشيء من الشر، بيد أننا مكرهون على تحملها، هكذا كان موقف المتآمرين الألمان يوم 20 جويلية 1944، لقد حاولوا الإفلات من الفخ الأخلاقي الفضيع الذي وقعوا فيه، لحظة تصديقهم الديمقراطي على قانون السلطات المطلقة لمارس 1933.

الديكتاتورية تفرض علينا موقف لسنا مسئولين عنه، لكن لا نستطيع على العموم تغييره، إن هذا، لا يطاق إنسانيا، ويتوجب علينا إذن، على المستوى الأخلاقي، التحذير من هذا النوع من المواقف. إن هذا هو ما نحاول فعله بفضل أشكال الدولة المسماة "ديمقراطيات"، وهنا تجد مسوغها الأخلاقي الوحيد. الديمقراطيات ليست إذن، سيادات شعبية، إنها قبل كل شيء مؤسسات مزودة بوسائل الدفاع ضد الديكتاتورية، إنها لا تمنح سلطة من نمط ديكتاتوري، جمعا للسلطات، لكنها تجتهد لتحديد سلطة الدولة.

إن الديمقراطية بهذا المعنى، تمكننا من التخلص من الحكومة دون إراقة للدماء، عندما تتخلى هذه الأخيرة عن حقوقها وواجباتها، لكن أيضا عندما نحكم على سياستها بأنها جيّدة أم خاطئة. المشكلة ليست إذن هي مشكلة الحكم، ولا معرفة من يحكم، لكنها مشكلة الحكومة

ومعرفة كيف نحكم. فالأساسي هو أن لا يكون للحكومة سلطة مفرطة، بعبارة أخرى المشكلة هي مشكلة "كيف؟" يتم ادارة الدولة. كان ذلك هو، ضمينا، لكن محققا، الموقف الذي تضمنه الديمقراطية الأثينية. وهو موقفنا أيضا، أو يجب أن يكون موقفنا.

مهما كانت المجموعة التي نعرفها ونطابقها بالشعب، سواء تعلق الأمر بعسكريين أو موظفين، عمالا ومستخدمين، قساوسة، كتاب، فإننا لا نريد لا سلطتهم ولا هيمنتهم، لا نريد لا الخوف منهم ولا أن نكره على خوفهم. نريد، ويجب علينا عند الاقتضاء، أن ندافع ضد مزاعمهم، ذلك هو موضوع أشكال حكومتنا الغريبة التي سواء نتيجة للعادة أو للبس لفظي، اطلق عليها اسم الديمقراطيات، والتي تعني الدفاع عن الحرية الفردية ضد كل أشكال السلطة، ماعدا سلطة واحدة: السيادة، سلطة القانون.

خامسا. النقطة الأساسية: الحكومة، يجب أن نكون قادرين على خلعها من دون إراقة للدماء: وجهة نظري هي إذن كالآتي: أهم شيء في كل أشكال الحكومة، هو قدرتنا على اقالة الحكومة دون إراقة الدماء، قبل أن تتولى حكومة أخرى زمام الحكم، وليس مهما جدا حسب رأيي كيف تتم هذه الاقالة - بواسطة انتخابات أم بواسطة قرار برلماني - مادام الأمر يتعلق بقرار أغلبية الناحيين، وأيضا قضية المحكمة الدستورية، لا يوجد هناك حدث يبين بوضوح كالطابع الديمقراطي للولايات المتحدة، من حيث ان استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون، كانت في الواقع عزلا.

وفيما يتعلق بموضوع تغيير الحكومة، هذه السلطة السلبية، أي التهديد بالعزل هو أهم شيء. وبالمقارنة مع السلطة الايجابية لتعيين حكومة، أو رئيسها، تكتسي أهمية ثانوية نسبيا. لكن هذا ليس هو

الرأي الشائع، وبوجه ما، فإن الحالة المبالغ فيها في تعيين جديد هي خطيرة: يمكن أن تفسر كصك على بياض ممنوح من قبل الناجحين، كشرعية باسم الشعب، ومن خلال "إرادة الشعب". بيد أنه ماذا نعرف وماذا يعرف الشعب عن الخطأ، وحتى الجريمة، التي قد تتهم بها الحكومة التي اختارها.

نستطيع الحكم على حكومة أو على سياسة حكومة بعد فوات الأوان، عندئذ من الممكن أن نمنحها تركيتنا، وإذن نعيد انتخاب هذه الحكومة. نستطيع أيضا أن نمنحها ثقتنا مسبقا، لكن في هذه الحالة نحن لا نعرف شيئا، ولا نستطيع معرفة أي شيء، نحن لا نعرف الحكومة، لا نستطيع إذن أن نفترض أنها ستسيء استعمال ثقتنا، ونقلا عما كتبه ثيوسيدس، فإن بيريكليس قد عبّر بكل بساطة عن هذه الفكرة "مع ان هناك قليل من الناس القادرون على تصور مشروع سياسي، فإننا مع ذلك متساوون في الحكم عليه". إن هذه الصياغة الوجيزة، تبدو لي أساسية، ونسجل أنها ترفض مقولة حكم الشعب، وحتى مقولة مبادرة الشعب، وعوضتها بفكرة مختلفة كلية هي: المحاكمة بواسطة الشعب.

إن بيريكليس فسّر باختصار شديد في هذا المقطع لماذا لا يستطيع الشعب أن يحكم حتى في غياب أية صعوبة خاصة: لأن الأفكار الجديدة على الخصوص لا يمكن أن تكون إلا عمل أفراد معزولين، وحتى لو أمكن توضيحها وتحسينها بالتعاون مع الآخرين لكن فيما بعد، خصوصا إن هم استطاعوا أن يقوموا بتجربة حول النتائج التي قادت إليها هذه الأفكار - إذا كانت جيدة أم سيئة - وهذا التقدير أو التقييم، بنعم أم لا، فإن هذه القرارات يمكن أن تكون في دائرة إختصاص هيئة انتخابية واسعة.

ولأجل هذا، فإن عبارة مثل "المبادرة الشعبية" عبارة مضللة، وتنتمي إلى الدعاية، فالأمر يتعلق على العموم بمبادرة بعض من الناس، والتي ستكون في جميع الحالات خاضعة للتقدير وللتقويم النقدي للشعب. فالمهم إذن، في مثل هذه الحالات، معرفة ما إذا كانت التدابير المقترحة تتجاوز مؤهلات الناخبين الذين يحكمون عليها. وقبل أن انتقل إلى موضوع آخر، أريد أن أحذر من الخطر الكامن وراء ما نعلمه للشعب وللأطفال، بقولنا أنهم يعيشون تحت نظام حكم الشعب، وهو غير صحيح، ولن يكون كذلك. وعندما يدركون هذا بسرعة، سيبدون تدمرا وسيشعرون خصوصا بالخدعة لأنهم يجهلون كلية اللبس اللفظي التقليدي. وسيكون لهذا نتائج وخيمة سواء على صورة العالم، أو على مستوى السياسة، ويمكن أن يقود هذا حتى إلى الارهاب، لقد عرفت حالات من هذا النوع.

سادسا الحرية وحدود الحرية: كما رأينا، بطريقة ما، نحن جميعا نتقاسم مسؤولية الحكومة، حتى ولو لم نشارك فيها مباشرة. لكن في المقابل، فإن هذه المسؤولية المشتركة للكثير من الحريات: حرية التعبير، وحرية الوصول إلى الخبر وإعلانه، وحرية النشر وحرية أخرى غيرها. إن "إسرافا" في "مذهب الدولة"، يؤدي إلى غياب الحرية، لكن يوجد أيضا إسراف في الحرية. يوجد بكل أسف تعسف في الحرية تماما مثلما أن هناك تعسفا في سلطة الدولة. يمكن أن نتعسف في حرية التعبير وفي حرية الصحافة التي يمكن أن تستخدم في إعطاء أخبارا كاذبة على سبيل المثال، وإلى إثارة الفتن، وبطريقة مماثلة تماما سلطة الدولة يمكن أن تضيق بتعسف حرية الأشخاص. نحن بحاجة إلى الحرية لمنع الدولة من التعسف في سلطتها ونحن بحاجة إلى الدولة لمنع تعسف الحرية. وواضح أنها مشكلة لا يمكن حلها أبدا

بالمعنى المجرد، ولا بواسطة قوانين. يجب أن تكون هناك محكمة دستورية، وخصوصا إرادة طيبة. يجب علينا التسليم أن الأمر يتعلق بمشكلة لا يمكن أبدا أن تحل كلية، أو على وجه الدقة، المشكلة التي لا يمكن أن تحل إلا في نظام دكتاتوري، إنطلاقا من واقع القوة الأساسية للدولة، التي نرفضها لأسباب أخلاقية. يجب علينا أن نقتصر على حلول جزئية وعلى تنازلات، وحيننا للحرية لا يجب أن يقودنا إلى إهمال المشكلات المتصلة بالاستعمال المتعسف للحرية.

سابعاً. هوبز، كانط، همبولد مل. هذه المشكلات قد أدركت من قبل مفكرين قدامى ومحدثين، الذين حاولوا بالاستناد على مبادئ كلية، تسويغ ضرورة سلطة الدولة، وتعريف حدودها. إنطلق هوبز⁽¹⁾ من فرضية أن الإنسان بدون دولة، سيكون ذئبا لأخيه الإنسان (homo homini lupus)، فنحن إذن بحاجة إلى دولة أكثر قوة قدر الإمكان، حتى نكبح الجريمة والعنف. ونظر كانط⁽²⁾ إلى المشكلة بطريقة مغايرة. كان يؤمن هو أيضا بضرورة الدولة، وبتحديد الحرية، لكنه أراد أن يحتزل هذا التحديد إلى الحد الأدنى، لقد كان يأمل في "دستور يهدف إلى أكبر حرية إنسانية طبقا لقوانين معينة، بحيث تتعايش حرية كل واحد مع حرية الآخرين"⁽³⁾ لقد أراد دولة عادلة قوية، تضمن لكل مواطن أكبر حرية ممكنة بتحديد

(1) طوماس هوبز (1588 - 1679)، فيلسوف إنجليزي من منظري العقد الاجتماعي، اشتهر بكتابه التنين.

(2) كانط: (1724 - 1804)، فيلسوف ألماني، مؤسس الفلسفة النقدية من أهم أعماله: نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي.

(3) E. Kant, Kritik der reinen Vernunft , Hamburg , Felix Meiner ,
Verlage, 1956, p.351 ;tra. Fr Critique de la raison pure, Paris, PUF,
1963.cf. également Projet de paix perpétuelle et autres écrits de Kant.

حريات الآخرين إلى الحد الأدنى، وفي الحدود التي تسمح بها حرية الآخرين. إن تطبيق الحرية كان بالنسبة لكانط ضروري للتعايش الانساني.

هذه الفكرة الكانطية، يمكن أن تفسر بالطريقة التالية، اهتم أمريكي بتوجيه لكمة إلى شخص آخر، فدافع عن نفسه بقوله أنه مواطن حر، وبجكم هذا الواقع، فلقد كان حرا في أن يوجه لكمة في الاتجاه الذي بدا أفضل، وهو مارّد عليه القاضي بقوله: "إن حرية تهيجك لقبضة يدك لها حدود، يمكن أحيانا أن تتغير، لكن أنف مواطنيك توجد دائما، خارج هذه الحدود".

في مؤلف سابق لكانط "حول المكان المشترك"، ربما هذا صحيح نظريا، لكن عمليا هذا لا يساوي شيئا (1793). نجد نظرية للدولة وللحرية، مؤسسة أكثر، في الجزء الثاني من المحرّر الذي ينتفض ضد هوبز. يذكر كانط "المبادئ الخالصة للعقل: المبدأ الأول هو الحرية، بصفته إنسانيا، الذي عبر بمبدئه بالطريقة التالية بغية تأسيس تجمع (مدني): لا أحد يستطيع إرغامي على أن أكون سعيدا بطريقة ما، لكن كل واحد يستطيع البحث عن سعادته بالطريقة التي تبدو له أفضل (...). إن الدولة التي ستكون طبقا لمبدأ الرفق نحو الشعب، بعبارة أخرى، حكومة أبوية (unperium paternale) (...) ستكون أسوأ حكم استبدادي يمكن تخيله"، حتى ولو كانت هذه الملاحظة الأخيرة تبدو لي مفرطة (بعد لينين وستالين، موسوليني وهتلر) فإنني مع هذا متفق تماما مع كانط. لأن ما أراد قوله معارضا هوبز، هو أننا لا نريد دولة قوية تكون ملزمة كثيرا، ورفيقة كثيرة لحماية حياتنا، التي هي بين يديها، ضد هؤلاء الذئاب، الذين هم نظرائنا، لكننا نريد دولة تكون فيها المهمة الرئيسية احترام وضمان حقوقنا. ستبقى هذه

المهمة حاسمة، حتى عندما تكون عكس ما فكر فيه هوبز. وبالفعل حتى في هذه الحالة، إن الضعفاء جدا لن يكون لهم أي حق ضد الأقوياء، الذين يشعرون إزاءهم بالعرفان لهم بتسامحهم، وجود دولة قانون فقط هو الذي يستطيع حل هذه المشكلة، ونخلق من هذا الواقع، ما يسميه كانط "كرامة الشخص".

هنا تكمن قوة الفكرة الكانطية للدولة وللعقل، ورفضه للدولة الأبوية، وفيما بعد تم تطوير أفكار كانط من قبل ويلهلم فون همبولد⁽¹⁾، وهذا مهم معرفته، إذ أن الكثير يعتقد أن هذه المبادئ لم تجدد بعد كانط أي صدى بألمانيا، خصوصا ببروسيا، وفي الدوائر السياسية الكبرى.

كتاب همبولد كان بعنوان "مقالة حول حدود عمل الدولة"، لم ينشر إلا سنة 1851، لكنه كتب في وقت مبكر جدا. ومن خلال هذا المؤلف وصلت أفكار كانط إلى إنجلترا. أما فيما يتعلق بكتاب جون ستيوارت مل⁽²⁾ "في الحرية" (1859)، فلقد استلهم من همبولد، وإذن من كانط، وعلى الخصوص فيما يتعلق بنقد الدولة الأبوية. إنه واحد من الكتب التي أثرت أكثر في الحركة الليبرالية - الراديكالية الإنجليزية، لقد اجتهد كانط وهامبولد ومل في تأسيس سلطة دولة، بحيث تنحصر في أضيق الحدود الممكنة. ولقد كانت فكرته تتمثل في أنه يجب أن تكون الدولة، لكننا نريد على الأقل، أي عكس الدولة الشمولية، نحن لا نريد دولة أبوية شمولية أو بيروقراطية، باختصار نريد دولة حد أدنى (Etat minimal).

(1) همبولد: (1767 - 1835)، فيلسوف ولغوي ألماني.

(2) جون ستيوارت مل: (1806 - 1873)، فيلسوف واقتصادي بريطاني، من رواد النظرية الليبرالية، من أهم العمال: الحرية.

ثامنا. الدولة: دولة حد أدنى أم دولة شمولية؟ يجب أن يكون لدينا دولة، دولة قانون، مثلما هي في المصطلح الكانطي، أي دولة تكون فيها حقوق الانسان واقعا قائما ومثل المعنى الثاني الكانطي أيضا، دولة مؤسسة تجازي وتعاقب بالقانون - القضائي الذي يحدد حريتنا قدر الامكان طبعاً، وبالطريقة الأكثر عدلاً. فضلاً عن هذا، يجب أن تكون أقل شمولية ممكنة. من جهتي، أعتقد مع ذلك أن كل دولة لها تركيبة شمولية، وحتى تركيبات كثيرة، وأن هذه التركيبات هي الحاسمة.

إن المهمة الرئيسية التي تعود إلى الدولة - ما نشترطه فيها قبل كل شيء - هو الاعتراف بحقنا في الحرية، وفي الحياة، وإن كان ضرورياً، مساعدتنا في الدفاع عن حريتنا وحياتنا كحق. لكن هذه المهمة هي أبوية، حتى المهمة التي يسميها كانط "الرفق" لها بعد، في هذا المستوى الاول، أهمية قصوى غير قابلة للتنديد. عندما نرغم على وجوب الدفاع عن حقوقنا الأساسية، لا يجب أن نلقى لاعداء، ولا لامبالاة من قبل الدولة (من قبل أجهزة الدولة) لكن نلقى العطف والرفق. في الواقع هذا الموقف هو موقف أبوي، سواء منظور إليه من فوق (من وجهة نظر أجهزة الدولة التي يجب أن يحركها الرفق)، او سواء من أسفل (من وجهة نظر المواطن الذي يبحث عن المساعدة من قوة أكثر منه).

صحيح أن الحق ذاته، في موضوعيته، يقع فوق هذه العلاقات الشخصية الكلية، لكن الحق الذي يتجسد في داخل الدولة وفي قوانينها هو عمل انساني، وإذن غير معصوم. وبحكم واقع أن هؤلاء الرجال يمكن ان يكونوا أحياناً أشراراً، وأنه يجب أن نكون سعداء، ونعترف بالجميل، حتى عندما يبرهنون تجاهنا - خلال سنوات عديدة

أحيانا - عن هذا الرفق الذي يعتبره كانط انسانيا فوق الحد، كل هذا يبرهن أن التركيبة الأبوية تلعب في هذا الموضوع دورا معقدا. الأشياء هي هكذا بكل أسف وانني أسلم بهذا على مضض، لكنها الحقيقة، وبتجاهلنا لهذه الحقيقة، توصلنا في مناقشتنا في هذه السنوات الأخيرة، إلى مباحكات منطقية، وحتى إلى كلام يثير السخرية، أريد الحديث عن الهجوم الراهن كلية الذي تتعرض له دولة - الرعاية.

أعتقد أن هذا الهجوم والنقاش الذي أثارته الفلسفة الرائجة في الوقت الحاضر، لا يمكن للأسف، مرة أخرى، أن يؤخذ مأخذ الجد، أي أن نبحث على إظهار أن نظرية دولة الرعاية، التي تتبنى غالبا طابعا اخلاقيا وانسانيا - فإنها تتعدى في الواقع على أهم الحقوق الانسانية - الحق في تقرير المصير، الحق في السعادة والشقاء حسب رغبتنا، هذا الحق الذي دافع عنه كانط ضد النظام الأبوي.

الهجوم الراديكالي الجديد ضد النظام الأبوي، يحيل غالبا إلى الفقرة التالية من كتاب جون ستيوارت مل "في الحرية" التي يقول "إن الغاية الوحيدة التي تسمح للناس - بصفتهم أفرادا وبصفتهم جماعات - إلى الحد من حرية عمل واحد منهم، هي الدفاع الشرعي عن الذات (...). إن الغاية الوحيدة التي تسمح بصفة شرعية، باستعمال القوة ضد عضو من مجموعة متحضرة، ضد إرادته، هي منع أن يلحق ضررا بالآخرين. وإن الحياة الكريمة لهذا العضو - كرامته الفيزيقية والأخلاقية - لا يمكن أن تبرر تدخلا مثل هذا (في حريته في العمل)".

لا أحد مرغم بالقانون لفعل أو عدم فعل أي شيء. ان هذه الفقرة تعيد المبدأ الكانطي الذي يقول أن لكل واحد الحق في أن يكون سعيدا أو شقيا، كما يحلو له، ويدين كل تدخل أبوي باعتباره غير شرعي.

انني اتفق مع مبدأ جون ستيوارت مل هذا؟ لكن ما هي نتائجه؟ هل يستطيع أن يستعمله بجدية في الدفاع عن حرية الفعل؟ لنأخذ مثالا يثير جدلا كبيرا: هل للدولة الحق في إلزام مواطنيها على ربط أحزمتهم عندما يقودون سياراتهم؟ طبعاً لا. حسب مبدأ جون ستيوارت مل، حتى عندما يرى الخبراء لأسباب تتعلق بالأمن والسلامة أنها ضرورية، أي أنه من الخطر القيادة بدون حزام. لكن انتظروا، في هذه الحالة أليست الدولة ملزمة بمنع المواطن ان يكون في هذا الموقف الخطير؟ أليس لديها الإلزام بمنع السائق؟ مثال آخر يثير الكثير من الجدل، انه مثال منع التدخين، ومن الواضح أنه تبعاً لمبدأ مل أنه لا يمكن أن يمنع اي شخص من التدخين، لأنه مضر به، لكن بالنسبة للآخرين؟ عندما يقول خبراء دولة أنه غير صحي، وحتى خطير استنشاق دخان الآخرين، أليست الدولة ملزمة بمنع التدخين في كل المواقف التي يكون فيها طرف آخر حاضراً؟

الموقف هو نفسه بالنسبة لمختلف أنماط التأمينات، على سبيل المثال، التأمين على الحوادث، وفقاً لمبدأ مل، لا يعني هذا أمراً عاماً، تحت طائلة متابعات الذي يتعرض لخطر التأمين، لكن بالأحرى منع طرف آخر، على سبيل المثال، المستخدم، هو أيضاً، الذي تحت طائلة متابعات، توظيف شخص يكون مسبقاً وبكل حرية غير مؤمن. مشكلة أخرى يتحدث عنها كثيراً، وهي مشكلة المخدرات، فحسب مل واضح أن كل شخص يتمتع بجميع ملكاته الذهنية (سواء أكان عمره أربعة عشر سنة، أو أكثر أو أقل)، له حق في ان لا يقبل الاستلاب، في تحطيم نفسه بكل حرية بتعاطيه المخدرات، وأن الدولة لا يمكنها أن تحرمه من هذا الحق. لكن الدولة أليست ملزمة بمنع أشخاص آخرين من خلق موقف أكثر خطورة؟ أليس إذن ملزمة،

كما تقوم بذلك في الوقت الحاضر، بمنع بيع المخدرات، وتهديد المخالفين بالعقوبات الأكثر قساوة؟

أنا لا أزعّم أننا نستطيع بهذا المنهج، معالجة جميع المشكلات التي تطرح، لكنه يبدو أنه فعال جدا. حالة السائق التي تبدو معقدة بالمقام الأول، يمكن أن تحل ببساطة شديدة، يجب على الدولة أن ترغم، تحت طائلة العقوبة، كل شخص يقود سيارة ان يدفع قيمة مضافة، في حال ما اذا نسي لربط حزامه).

وأضيف أنه سيكون ممتازا أن نذكر أجهزة الدولة (ليس في فائدهم، لكن في فائدتنا)، وبفضل هذا الإجراء للتدخل ليس لها الحق في إلزام شخص على فعل شيء "في فائدتها" تستطيع أن تمنح مطلق الحرية إلى غرائزها الأبوية - أو تقريبا كما يحدث هذا حاليا - لكن تحت شكل محسن، وتحت حجة العمل على حماية الآخرين، أن المال المدفوع للدولة - الرعاية، يستخدم ليس لتأمين ذواتنا، لكن لحماية الآخرين، وكل واحد حر كلية في دفعه، لكن لا يستمر في أخذ حقوقه في الحماية الاجتماعية.

مبدأ مل الذي أقبله تحت الصيغة التالية (كل واحد حر في أن يكون سعيدا أو شقيا كما يحلو له، شريطة أن لا يعرض هذا شخصا آخر للخطر، لكن الدولة مسئولة عن واقع أن المواطنين الذين ليسوا على علم، أنهم يتعرضون لمخاطر يمكن تجنبها لأنهم غير قادرين على تقدير خطورتها بأنفسهم).

لا يستطيع هذا المبدأ أن يقدم إلا مساهمة صغيرة في النقد الأساسي في ذاته للدولة الرعاية، بالفعل، إذا كان اهتمامنا المشروع بدولة حد أدنى لا علاقة له بمبدأ مل في المقابل له علاقة كبيرة بـ "دولة - الرعاية"، لأنه يؤدي إلى اقتراح تخصيص التأمين الاجتماعي.

ولكبي أختم، أريد أن ألاحظ أنه توجد وظيفة تقليدية للدولة، أحب أن أصفها بأنها زائدة وغير ضرورية، مثل وظائف العديد من المهمات الأخرى، لكن للأسف لا يمكن اعتبارها كوظيفة، فهي للأسف الشديد لازالت ذات أهمية عالية، ولا يمكن أن تسند إلى مؤسسة خاصة. أريد الحديث عن الدفاع عن الأمة. من الواضح أنه يتعلق من مختلف وجهات النظر بوظيفة أبوية، وأن أهميته الراهنة تختزل بوضوح الاهتمام الذي تعرضه على المستوى الفلسفي، النظريات المعادية للأبوية. ومن جهتها هذه النظريات المتفائلة تبدو أنها تسلم أننا نستطيع أن نغرق مشكلة الدفاع عن الأمة بتجاهلها بكل بساطة. إلا أنه في الوقت نفسه ذات أهمية قصوى، وذات تكلفة عالية جدا، إنه أسوأ تهديد تواجهه دولة الحد الأدنى *état minimal*، هذه المسألة تذكرنا بوظيفة أخرى، أكيد أنها أقل تكلفة، وهي وثيقة الصلة بالدفاع الوطني، إنها السياسة الخارجية، هي أيضا ذات أهمية، كلتا المسألتين لهما نتائج تؤدي إلى ظهور فكرة دولة الحد الأدنى كمثال *Ideal* بعيد وطوباوي، ومع ذلك، لا يجب لهذا، أن نتخلى عنه، لان دولة الحد الأدنى ليست إلا مبدأ معياريا منظما. وأريد مع ذلك التذكير بشيء آخر أيضا: هي أن الدولة التي من واجبها الدفاع عن الأمة، يجب أن تراقب استعداد مواطنيها على حمل السلاح، وإذن: صحتهم أيضا. ويجب عليها حتى مراقبة بعض نقاط الاقتصاد، لأنه يجب على الدولة أن تكون بحوزتها احتياطات معتبرة، تدعيم سير وسائل التنقل، والإشارة، وأشياء أخرى عديدة.

تاسعا. حقوق القصر: بكل أسف أحيانا، من حيث المبدأ، ولأسباب أخلاقية، فإن الأمور لا تسير بدون حد أدنى من السلطة، عندما تعترف الدولة بحق مواطنيها في الحماية من قبل الشرطة ضد

السرقه، يجب عليها أيضا أن تعترف بحقوق القصر، في أن يكونوا محميين عند اللزوم، من آبائهم، إنه بالضرورة حق أبوي من حيث المبدأ. البديل "دولة حد أدنى أو دولة متسلطة؟".

عاشرا. حل مشكلة البيروقراطية والبيروقراطية العسكرية: نقطة هامة في كل نظرية للدولة غير الاستبدادية "وإذن الديمقراطية" هي البيروقراطية. اعتبر ماكس فيبر، المفكر العظيم، ان هذا المشكل غير قابل للحل، مما دفعه إلى التشاؤم. وفيما يتعلق بي فلني أخاله سهل الحل، نظريا، إذا كانت مبادئ الديمقراطية معترف بها، وإذا نحن نريد حقا حلا لهذا المشكل. وبالمقابل أنا لا أؤمن البتة أنه من الممكن حل مشكلة البيروقراطية العسكرية.

حادي عشر. أمل الشبيبة: ديمقراطياتنا الغربية - وخصوصا الولايات المتحدة - الأقدم في الديمقراطيات الغربية، هي نجاح لا سابق له. هذا النجاح هو ثمرة الكثير من العمل، الكثير من الجهد لكثير من الإرادات الطيبة، وقبل كل شيء لكثير من الأفكار الخلاقة في ميادين متعددة. النتيجة هي أن عددا كبيرا من الناس السعداء يحيون حياة أكثر حرية، حياة أجمل وأطول مما لم يكن أبدا من قبل. أعرف، طبعاً، أن كثيرا من الأشياء يجب أن تحسن. النقطة الأساسية هي بكل تأكيد أن ديمقراطياتنا لا تتميز تميزا واضحا عن ديكتاتوريات الأغلبية، لكن لحد الساعة لم يكن هناك أبدا في التاريخ، دول استطاع الناس العيش فيها بحرية، وأن يحيا حياة كذلك جميلة أو أفضل مثل هذه. أعرف أن عددا ضئيلا من الأشخاص يشاطرونني هذا الرأي، أعرف أن عالمنا له كذلك جوانب سيئة كالجنوح والقسوة والفظاظة والمخدرات..، إننا نرتكب أخطاء عديدة، حتى ولو أن الكثير منا يستخرجون دروسا من أخطائهم،

فإن البعض ينغلِقون في أخطائهم، لكن هذا العالم يفرض علينا بعض المهمات، نستطيع أن نعيش فيه سعداء وراضون، لكن يجب أن يقال هذا، إذ أنني لا أسمعُه تقريبا أبدا. كل يوم بالمقابل، أسمع التأوه والإرغاء والإزباد من هذا العالم المكروه كما يزعمون، الذي حكم علينا العيش فيه. أخال أن نشر هذه الأكاذيب هو أكبر جريمة في عصرنا لأنه تهديد للشبيبة، التي نريد أن نحرّمها من حقها في الأمل وفي التفاؤل. في بعض الحالات، هذا يقود إلى الانتحار وإلى المخدرات أو إلى الإرهاب.

ثاني عشرة. النزعة التفاؤلية وخطر وسائل الإعلام: ولحسن الحظ كثيرا، الحقيقة قابلة للتحقق بسهولة: والحقيقة هي أننا نحن في الغرب نعيش أفضل العوالم التي لم توجد أبدا. لا نستطيع أن نسمح بأن يسكت على هذه الحقيقة. وسائل الإعلام، التي هي بهذا الاعتبار، المتهمّة الكبرى، يجب أن يقنع أصحابها بأنهم يتسببون في خسائر خطيرة. يجب إقناعهم على التعاون. يجب حث وسائل الإعلام على رؤية وقول الحقيقة، وإدراك المخاطر التي يتسببون فيها. عليهم مثل كل المؤسسات السليمة أن يقوموا بنقدهم الذاتي، وأن ينبّه بعضهم بعضا. لكن الأضرار التي يتسببون فيها في الوقت الراهن، هي أضرار جسيمة، إذا لم يتعاونوا، سيكون من المستحيل كلية أن نبقي متفائلين.

الحرية والمسؤولية الفكرية(*)

المستقبل مفتوح ومتعلق بنا جميعاً. انه متعلق بما تفعله وافعله ويفعله غيرنا من الناس، اليوم وغدا وبعد الغد. وما تفعله وما سنفعله متصل هو الآخر بفكرنا ورغباتنا وآمالنا وتخوفاتنا، بتعبير آخر، انه متصل برؤيتنا للعالم وبحكمنا وتقديرنا للإمكانيات الكبيرة والواسعة والمفتوحة التي يحملها لنا المستقبل⁽¹⁾.

هذا يعني أن علينا مسؤولية كبيرة، مسؤولية تكبر وتعظم عندما نعي الحقيقة التالية: نحن لا نعرف شيئاً، أو في احسن الأحوال، نحن نعرف القليل من الأشياء بحيث نضطر إلى تقديرها بأنها <<لاشيء>>، إنها لا شيء مقارنة بما يجب معرفته حتى نتخذ القرارات الصائبة.

إن سقراط هو أول من فهم هذه الحقيقة. لقد كان يقول بان على رجل الدولة أن يكون حكيماً، بمعنى أكثر حكمة حتى يعرف انه لا يعرف شيئاً. وكذلك كان أفلاطون يقول أن رجل الدولة، وهو الملك، يجب أن يكون حكيماً، إلا انه كان يريد أن يقول شيئاً مخالفاً لسقراط. لقد كان يريد أن يقول بان الملوك يجب أن يكون فلاسفة وكان عليهم أن يذهبوا إلى مدرسته لكي يتعلموا الجدل الأفلاطوني - وهو شيء في غاية العلم والتعقيد - والأفضل أن يتولى الفلاسفة

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

(1) نص محاضرة كارل بوبر في جامعة القديس غال بسويسرا سنة 1989.

اللامعون والتمكنون الحكم، مثله على سبيل المثال، أي يجب أن يصبحوا ملوكا يسيرون العالم. هذا الاقتراح نسبته أفلاطون الى أستاذه سقراط مما خلق نوعا من سوء الفهم. فلقد تحمس الفلاسفة لهذا المسعى الذي يجعلهم ملوكا.

لهذا السبب أريد مرة أخرى أن أوضح هذا التمييز في العبارة <<يجب أن يكون رجل الدولة حكيما>> التي تعني، بالنسبة لأفلاطون، الفيلسوف المتمكن الذي له الحق في السلطة. من هنا طموح المثقفين والمفكرين والنخبة إلى السلطة. أما بالنسبة لسقراط فان الأمر على غير ذلك كلية، لان العبارة نفسها تعني أن على رجل الدولة أن يعرف إلى أي حد وإلى أية نقطة يعرف القليل من الأشياء، ومن هنا يجب عليه أن يكون في غاية التواضع في طموحاته.

لقد كان يرى أن على الحاكم أو رجل الدولة، مسؤوليات عظيمة وكبيرة في قضايا الحرب والسلام، وان عليه أن يعرف حجم المأساة التي يمكن أن يحدثها. خاصة وانه يعرف، انه يعرف القليل من الأشياء. <<اعرف نفسك>>، هذا ما كان يطالب به سقراط. <<اعرف نفسك، واعترف انك في غاية الجهل!>>⁽¹⁾.

هذا هو توجه سقراط، أو على الاقل الحكمة السقراطية. <<اعرف نفسك>>: واعترف بجهلك. وأما الأفلاطوني الذي لم يكن ملكا، وانما قائدا كلي العلم Omniscient لأحد الأحزاب او لحزب ما، وحتى لو كان حزبه لا يتشكل، بشكل عام، الا من شخصه، وفي المقابل، هنالك قادة كل الأحزاب، وبشكل خاص

Xénophon: Mémoires, chap.6. (1)

قادة الأحزاب المعادية والأحزاب الناجحة، كلها أفلاطونية. لأنهم هم الأشخاص والأفراد المتفوقون والمكونون بشكل افضل وبالتالي هم الأكثر حكمة، والذين يرى أفلاطون انهم يجب أن يكونوا قادتنا.

<<من يجب أن يحكم؟>> هذه هي المسألة الأساسية في الفلسفة السياسية الأفلاطونية. وجواب أفلاطون هو: المتفوق، لانه هو الأكثر حكمة في الوقت نفسه! تبدو هذه الإجابة من النظرة الأولى صحيحة. ولكن ما الذي يحدث لو لم يكن متفوقا ولا حكيما، الا يجب في هذه الحالة أن يرفض الحكم والسلطة؟ هذا ما فهمه أحد اتباع وتلامذة سقراط من المتفوق والأكثر حكمة؟ كان يتصور ان الشخص الذي يعتقد انه المتفوق والأكثر حكمة مصاب بهذيان او بمرض العظمة، وان مثل هذا الشخص لا يمكن ان يكون لا خيرا ولا حكيما⁽¹⁾.

ومن البديهي، فان سؤال <<من يجب ان يحكم؟>> قد طرح بشكل خاطئ. بالرغم من انه والى يومنا هذا، مازال يطرح على هذا الشكل، ونعود دائما الى الحل الذي قدمه افلاطون. ومنذ زمان كانت الاجابة هي: ان الامبراطور الذي اعتلى العرش بواسطة العسكر، لم يعتليه الا لانه هو وحده الذي يستطيع ان يحكم وان يدوم في الحكم. ثم لاحقا اصبح: الامير الشرعي بواسطة العناية الالهية. كما طالب ماركس كذلك: لمن تحقق له السلطة، السلطة الديكتاتورية، البروليتاريون ام الراسماليون؟ وكان جوابه هو: البروليتاريون الجيدون، الذين يمتلكون الوعي الطبقي. وبالتاكيد لا

Id. (1)

يتعلق الامر بالراسماليين الشريرين والانانيين. كما لا يتعلق الامر كذلك وبالتاكيد بالبروليتارية الرثة، هؤلاء الذين لا يستحقون الا التوبيخ. (وان كان لم يعد لهم وجود عندنا).

ان معظم المنظرين للديمقراطية، يواصلون هم كذلك الاجابة على سؤال افلاطون <<من يجب ان يحكم؟>> وتقتضي نظرياتهم، استبدال الجواب الذي ظهر في العصور الوسطى وكأنه بديهي وهو: <<الامير الشرعي بواسطة العناية الالهية>> بجواب آخر وهو: <<الشعب بواسطة العناية الالهية>>. وهكذا نقلد العبارة <<بواسطة العناية الالهية>> ونستبدلها بعبارة من نوع: <<الشعب بواسطة العناية الالهية>>. هذا ما كان يقال في روما القديمة "صوت الشعب هو صوت الله. Vox populi, vox dei".

اننا نجد دائما سؤال افلاطون <<من يجب ان يحكم؟>>، وله دائما اهمية كبيرة في النظرية السياسية وفي النظرية الشرعية، وخاصة في النظرية الديمقراطية. فنحن مازلنا نقول ان للحكومة الحق في الحكم مادامت شرعية، بمعنى عندما تكون منتخبة من طرف غالبية الشعب، او من طرف ممثلي الشعب وبالاتفاق مع احكام الدستور. ولكن لا يجب ان ننسى ان "هتلر" قد وصل الى الحكم بطريقة شرعية وان القانسون الذي خوله جميع السلطات، قد تمت المصادقة عليه من طرف الاغلبية البرلمانية. اذن ان مبدأ الشرعية لا يكفي. لانه اجابة على سؤال افلاطون، وعليه فان مايجب تحويله وتحويره وتغييره وتعديله هو السؤال ذاته.

لقد راينا ان مبدأ السيادة الشعبية قد شكل اجابة ممكنة. مع انه يشكل مبدءا خطيرا، لان ديكتاتورية الاغلبية يمكن ان تكون مرعبة بالنسبة للاقلية.

لقد مرت اربعة واربعون سنة منذ الآن، عندما نشرت كتابي "المجتمع المفتوح واعدائه"، والذي كتبته كمساهمة في فهم الحرب العالمية الثانية. في هذا الكتاب اقترحت استبدال سؤال افلاطون >> "من يحق له الحكم؟" << بسؤال مختلف عنه جذريا وهو: >> كيف يمكن تصور تنظيم الدولة بصفة تسمح لنا من التخلص من الحكومة من دون اراقة للدماء؟ <<. ان هذا السؤال يركز على عملية اقالة حكومة، وليس على عملية تشكيلها.

ان كلمة الديمقراطية التي تعني >>حكم الشعب << هي مع الاسف كلمة خطيرة. ذلك ان كل فرد من افراد الشعب يعرف تماما انه لا يحكم، ومن هنا لديه انطباع بان الديمقراطية تعتبر نوعا من الاختلاس والنصب والاحتيال. وهنا يكمن الخطر. ومن المهم ان نتعلم ومنذ الدراسة بان كلمة >>الديمقراطية<< منذ الديمقراطية الاثينية، هي الاسم التقليدي الذي نطلقه على دستور يمنع قيام ديكتاتورية او طغيان. الديكتاتورية والطغيان هي اسوء الاشياء، مثلما نراها الآن في الصين. بحيث انه لايمكن التحرر منها من دون اراقة الدماء، وفي الغالب حتى مع اراقة الدماء: فالى يومنا هذا مازالت الديكتاتوريات قوية جدا مثلما لاحظنا ذلك، بمناسبة تلك المحاولة الثائرة ضد هتلر في 20 جويلية 1944.

ان كل ديكتاتورية هي لا اخلاقية. كل ديكتاتورية هي اخلاقيا سيئة. انه المبدء الاخلاقي الاساسي للديمقراطية، مفهوما على انه شكل الدولة الذي يسمح باقالة حكومة من دون اراقة للدماء. الديكتاتورية سيئة اخلاقيا، لانها ترغب مواطنوا الدولة، ضد وعيهم وضد قناعاتهم الاخلاقية، على التعاون مع الشر، ولو بالصمت. انها تحرم على الانسان مسؤوليته الاخلاقية، وهو من دونها ليس الا نصف

انسان او اقل من ذلك. وفي ظل ديكتاتورية، فان أي محاولة من اجل تحمل المسؤولية الانسانية تصبح محاولة انتحارية.

يمكن ان نبين تاريخيا ان الديمقراطية الاثينية كانت، او على الاقل حتى زمن بريكلس وثيوسديد، لم تكن تعني سيادة الشعب بقدر ما كانت وسيلة لمنع قيام الطغيان. لقد كان الثمن باهضا، وربما كان زائدا، لانه تم الغاؤها بعد اقل من مائة سنة. لقد كان هذا الثمن هو النفي والابعاد والنبد والطرْد "Ostracisme" الذي فهم في الغالب بطريقة خاطئة، بحيث ان كل مواطن يصبح اكثر شعبية او يتمتع بشعبية خطيرة يجب ان يبعد، بسبب هذه الشعبية ذاتها. هكذا تم طرد وابعاد رجال الدولة المتمكنون مثل ارستيد "Aristide"⁽¹⁾، وثمانستوكل. وسيكون من العبث القول ان ارستيد قد تم ابعاده، لانه كان يشكل عقبة لتوجهات وخطط ثميستوكل، او ان كنيته <<العادل>> قد اثارت غيرة مواطنيه. هذه امور لاعلاقة لها بالابعاد. ان كنيته تشير الى ان ارستيد كان اكثر شعبية، وان مهمة ووظيفة الابعاد هي بالتحديد منع قيام سلطة او حكم ديكتاتوري شعبي "Populiste". هذا هو سبب ابعاده، وهو نفس سبب إبعاد ثميستوكل.

وحتى بريكلس يظهرانه تفتن الى ان الديمقراطية الاثينية ليست سيادة شعبية، وان مثل هذه السيادة لا يمكن ان تكون. وبالفعل ففي خطابه المشهور، الذي يمكن ان نقراه في ثيوسديد، يقول (مع ان هنالك قلة من الاشخاص يمكن ان يكون لها مشروعا سياسيا، الا اننا قادرون جميعا على تقييمه والحكم عليه). يعني هذا، اننا لسنا كلنا

(1) ارستيد: (550 - 467 ق.م) سياسي واستراتيجي اثيني، عرف بالعادل.

قادرون على الحكم، ولكننا نستطيع الحكم على الحكومة، وانه بإمكاننا ان نقوم بدور لجنة التحكيم.

هذا مايجب ان يحدث، في نظري، يوم الانتخاب: انه ليس اليوم الذي نعطي فيه شرعية للحكومة الجديدة، ولكنه اليوم الذي نعلن فيه حكمنا على الحكومة السابقة. اليوم الذي تقدم فيه الحكومة حسابها على افعالها.

اريد ان ابين باختصار، بان الفرق بين الديمقراطية بوصفها سيادة شعبية والديمقراطية بوصفها محكمة شعبية لها اثار عملية، وليست فقط نظرية او لفظية. ذلك اننا نرى ان مبدا السيادة الشعبية يؤدي الى منح تمثيل نسبي، لكل مجموعة رأي، وكل حزب، بما فيها الاحزاب الصغيرة التي يجب ان تكون ممثلة، حتى يكون التمثيل البرلماني مرآة للشعب، وحتى تتحقق فكرة الحكم بواسطة الشعب او حكم الشعب باكبر قدر ممكن. لقد قرأت اقتراحا مرعبا مفاده ان كل مواطن ومواطنة يجب ان ينتخب مباشرة، من خلال الضغط على زر كهربائي، على جميع القضايا التي يتم مناقشتها في التلفزة من خلال ممثليهم. ويقال ايضا وذلك في اطار التوجه الديمقراطي بوصفه تمثيلا لحكم الشعب، انه من المفيد تسمين عمل الجمعيات.

من وجهة النظر القائلة ان الديمقراطية محكمة الشعب والتي ادافع عليها، فان الأشياء تبدو مغايرة تماما. ذلك انني اعتبر تكاثر الاحزاب شؤما، وعليه فانني ضد النظام الانتخابي القائم على النسب. بالفعل فان تكاثر الأحزاب يؤدي الى حكومات الائتلاف، حيث لا احد مسؤول امام محكمة الشعب، لان كل شيء يؤدي ضرورة الى نوع من التسوية. ومن جهة اخرى، يصبح من الصعب التخلص من الحكومة لانه يكفي ايجاد حليف جديد اقل اهمية في الائتلاف من

اجل القدرة على الاستمرار في الحكومة. في المقابل اذا كان هنالك عدد قليل من الاحزاب، فان الحكومات تكون بالضرورة حكومات أغلبية أساسا ومسؤولياتها واضحة ومحددة. ومن جهة اخرى اعتقد انه من غير المفيد والمجدي ان تكون آراء الشعب تعكس نسبيا وبدرجة اقل على مستوى الحكومة. هذا يؤدي الى لا مسؤولية الحكومة.

ولكن الاعتراض القوي الذي ارفعه ضد نظرية السيادة الشعبية، هي كونها تغلب وتفضل ايديولوجية لاعقلانية ومشعوذة: الشعوذة المتسلطة والنسبية حيث ان الشعب (أو الأغلبية) لا يمكن أن يخطئ أو أن يسلك سلوكا غير عادل. هذه الأيديولوجية لا أخلاقية ويجب رفضها. لاننا نعرف منذ ثيوسديد، ان الديمقراطية الاثينية (والتي اقدرها على اكثر من صعيد)، قد اتخذت قرارات اجرامية. فلقد هاجمت (ليس من دون ان تعلن انذارا) الجزيرة المحايدة "ميلوس" Méélos، قبل ان تقتل كل الرجال وتبيع كل النساء والاطفال في الاسواق الكبرى كعبيد. هذا ما تستطيع القيام به الديمقراطية الاثينية. والبرلمان الالماني لجمهورية "فيمار" Weimar⁽¹⁾، انتخب حرا، واستطاع، من خلال تشريعات دستورية واصوات شرعية، ان يصنع من هتلر⁽²⁾ ديكتاتورا. وحتى لو لم يربح هتلر الانتخابات الحرة في ألمانيا والنمسا بعد الحاقه لهذا البلد قسرا، فانه سيحقق انتصارا انتخابيا كليا.

كلنا معرضون للخطأ، مما يعني ان الشعب هو كذلك يخطئ مثلته مثل اية جماعة انسانية. واذا كنت مع فكرة ان الشعب، يجب ان

(1) جمهورية فيمار: تكونت بعد الحرب العالمية الاولى وتحديدًا ما بين سنة (1919 - 1933).

(2) هتلر: (1889 - 1945) مؤسس الحركة النازية، وقائد الحزب الوطني الاشتراكي، حكم ألمانيا ما بين 1933 - 1945.

تكون له سلطة اقالة حكومة، فلاني لا اعرف افضل طريقة لتجنب الطغيان. وحتى مقولة ان الديمقراطية هي محكمة الشعب كما ادافع عنها لا ينقصها شيء. وان العبارة المجازية التي قالها ونستون تشرشل تنطبق عليها: <<الديمقراطية هي اسوء اشكال الحكم باستثناء جميع الاشكال الاخرى.>>. باختصار، ان الفرق بين الفكرتين - الديمقراطية بوصفها سيادة الشعب والديمقراطية بوصفها محكمة الشعب، او بوصفها وسيلة تسمح بتفادي حكومة طغيانية - ليس فرقا لفظيا. ان لها نتائج تطبيقية هامة، متعلقة ببلد مثل سويسرا. فعلى الرغم من اننا ما نزال في المدارس والثانويات، حسب علمي، ندافع دائما على النظرية الايديولوجية الخطيرة لسيادة الشعب، وليس النظرية المتواضعة والواقعية للديمقراطية بوصفها وسيلة للتخلص من الديكتاتورية التي لا تحتمل والتي لا يمكن الدفاع عنها اخلاقيا.

ولكن الان اريد ان اعود الى نقطة البداية. المستقبل جد مفتوح ويمكن ان نؤثر فيما هو قادم. علينا اذن مسؤولية كبيرة ما في ذلك شك. فماذا يمكن لنا ان نفعله؟ هل يمكن لنا ان نفعل شيئا يمنع ما هو مرعب مثل الذي يحدث في اقصى الشرق؟ أريد أن أحدثكم عن الوطنية والعنصرية وعن ضحايا بول بوت "Pol Pot"⁽¹⁾، في كمبوديا وضحايا آيات الله في إيران، عن الضحايا في روسيا وأفغانستان وعن الضحايا الاخيرة في الصين. ماذا يمكننا ان نفعله من اجل تجنب ومنع هذه الأحداث المرعبة؟ هل نحن في مستوى يمكننا من تجنب مثل هذه الأشياء؟

(1) بول بوت: (1925 - 1998) قائد الحركة الشيوعية المشهورة بالخمير الحمر. تولى منصب رئيس وزراء في كمبوديا لفترة ثلاث سنوات من 1976 - 1979 وكان الحاكم الفعلي لكمبوديا منذ منتصف العام 1975. واشتهر بأعماله القمعية.

جوابي على هذا السؤال هو: نعم. اعتقد اننا نستطيع فعل الكثير. وعندما اقول <<نحن>> فاني اتحدث عن المثقفين، بمعنى عن الذين يهتمون بالأفكار، أي أولئك الذين يقرؤون ومن الممكن انهم يكتبون. فما الذي يجعلني أفكر بأننا نستطيع أن نلعب دورا إيجابيا؟ لأنه وببساطة ومنذ قرون، كنا سببا في كوارث مروعة. القضاء على جماعات باسم فكرة أو عقيدة أو نظرية - هنا يكمن اثرنا وعملنا واختراعنا: الاختراع الفكري. وفي حالة ما إذا توقفنا عن توجيه الناس ضد بعضهم البعض - وفي الغالب بمقاصد طيبة - وحتى اذا ما توقفنا عند هذا الحد فان هذا كاف جدا. ولا احد يستطيع أن يزعم، أننا لا نستطيع فعل هذا.

ان من بين اهم الوصايا العشر تلك الوصية التي تقول: لا تقتل أبدا! إنها تلخص تقريبا كل الأخلاق. وكذلك الكيفية التي طرح بها شوبنهاور "Schopenhauer"⁽¹⁾ أخلاقه، التي ليست أكثر من امتداد لهذه الوصية الرئيسية. أخلاق شوبنهاور أخلاق بسيطة ومباشرة وواضحة. لا تخطيء في حق احد، لا تجرح احدا، وبالعكس ساعد الجميع قدر استطاعتك.

ولكن ما الذي حدث عندما نزل النبي موسى، من جبل سيناء حاملا الألواح الحجرية، وقبل ان يتلفظ بالوصايا العشر؟ لقد اكتشف بدعة قاتلة، بدعة العجل الذهبي. هنا نسي الوصية القائلة <<لا تقتل أحدا>>. وصرخ: <<لتأتي اليّ رعية الربّ [...] هكذا تحدث الربّ، اله اسرائيل: كل واحد يقلد سيفه [...] وكل واحد يخنق اخاه، وصديقه، وقريه [...] وهكذا في هذا اليوم سقط ثلاثة آلاف رجل>>.

(1) شوبنهاور: (1788 - 1860) فيلسوف الماني عرف بتشاؤمه، من اشهر اعماله: العالم ارادة وصورة.

ربما كانت هذه هي البداية. ولكن المؤكد أن الأمور استمرت بهذا الشكل في الأرض المقدسة وبعدها هنا في الغرب، وخاصة بعد اقامة المسيحية بوصفها ديانة الدولة. انه التاريخ المرعب للاضطهاد الديني القائم باسم الارثوذكسية. وبعد ذلك، وخاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، هنالك اسباب ايديولوجية اخرى تداعت الواحدة بعد الاخرى لتسويغ الاضطهاد والوحشية والرعب وخاصة: الوطنية والعرق والطبقة والبدعة السياسية او الدينية.

ان تصورات الارثوذكسية والبدع تستر العيوب، الاكثر حقارة والاشد حساسة، العيوب التي نكون عرضة لها، مثل: العجرفة والكبرياء والغطرسة والثقة من اننا على حق دائم، والتحذلق او "ادعاء العلم Pédantisme" والغرور الفكري. هذه العيوب خسيصة، ولكنها ليست خطيرة مثل القساوة والفضاعة والوحشية. ولكن القساوة ليست بعيدة او غريبة عن المثقفين. في هذا المجال ايضا، لدينا نصيبنا من هذه الامور. يكفي التفكير في الاطباء النازيين، الذين قتلوا الشيوخ والرجال المعمرين والمرضى قبل ان يحدث اوشويتز "Auschwitz"،⁽¹⁾ والى ما كان يسمى بـ "الحل النهائي Solution finale" للمسألة اليهودية⁽²⁾.

لقد قمنا دائما باسوء الاشياء، وذلك بحقارة وغرور وكبرياء قمنا ونقوم باسوء الاشياء. نحن خونة الفكر والروح كما قال المفكر الفرنسي الكبير جوليان بوندا "Julien Benda"⁽³⁾. نحن الذين ابتدعنا

(1) اوشويتز: معسكر الاعتقال الألماني في بلدة أوشوتز التي تقع في بولندا حاليا.

(2) الحل النهائي: مخطط إبادة الشعب اليهودي الذي رسمته القيادة الألمانية النازية.

(3) جوليان بوندا: (1867 - 1956)، اديب وناقد فرنسي، اشتهر بكتابه: خيانة الكهنة.

ونشترنا، الوطنية كما بين ذلك بوندا، ونقلد كل المواضع الغبية. نريد ان نظهر وان نتحدث لغة غير مفهومة ولكنها مبهرة جدا، لغة العلماء، لغة الدكاترة المصطنعة، التي تلقيناها من اساتذتنا الهيجليين والتي نجدها عند كل الهيجليين. هذا هو فساد اللغة، اللغة الالمانية، التي تنافس بها فيما بيننا. وهذا هو العائق الذي يمنع كل تبادل معقول بيننا، حيث الواقع يحجب عنا تلك الوضعية، وضعية اننا دائما نقول الحماقات ونصطاد في المياه العكرة.

ان الاضرار التي تسببنا فيها في الماضي كانت اضرارا مرعبة. ولكن منذ ذلك الوقت، بمعنى منذ ان اصبحتنا احرارا في قول كل شيء وكتابة كل شيء، فاننا اصبحتنا كذلك، اكثر مسؤولية؟ لقد كتبت ذات مرة حول اليوتيبيا الافلاطونية، على ان الذين اقترحوا او ابتدعوا فكرة اللجنة على الارض قد تسببوا كذلك في الجحيم، ولكن هنالك كثير من المثقفين المتحمسين لجحيم هتلر. فعالم النفس السويسري الكبير كارل غوستاف يونغ "Carl Gustav Jung" ⁽¹⁾، اكتشف المصير الجديد للروح الالمانية او الجرمانية، خاصة وانه لا يخشى كثيرا على حياته مادام يعيش في سويسرا! وبعد موت هتلر ننسى ما كتبه، فبحث وعالج الطبيعة السيئة للروح الالمانية. انه مع اتفاقهما الاطلنطي، استطاع ونستون شرشل وفرانكلين دولانو روزفلت "Franklin Delano Roosevelt" ⁽²⁾، ان يقيما ويؤسسا عالما جديدا، وهذا بفضل الطيارين الشباب للطيران الحربي

(1) كارل غوستاف يونغ: (1875 - 1961) طبيب نفسي سويسري، يعتبر من مؤسسي علم النفس التحليلي.

(2) فرانكلين دولانو روزفلت: (1882 - 1945) رئيس الولايات المتحدة الامريكية من سنة 1932 - الى سنة 1945. عاصر الحرب العالمية الثانية حيث قاد الحلفاء إلى النصر رغم شلله.

والعسكري، أولئك الذين كانوا يواجهون خطر الموت في المعركة البريطانية الفاصلة سنتي 1940 و 1941 والذين ضحوا من أجلنا. ومنذ الانتصار على هتلر، فإن أوروبا الغربية لم تعد تعيش في جهنم هتلر، ولكن في جنة السلم الأوروبي، في عالم هو العالم الأفضل والعاقل الذي عرفه التاريخ ولو تعاون ستالين، لكننا نعيش اليوم، وبفضل الأمم المتحدة، ليس فقط السلم في أوروبا الغربية وشمال الأطلسي ولكن كنا نعيش السلم العالمي، ولأصبح مشروع مارشال "Plan Marshall" مشروعاً عالمياً⁽¹⁾.

ولكن ما إن بدا يظهر هذا الجديد ويقوم ويتأسس - وبدأت الأمور تسير نحو الأحسن في الغرب - حتى انفجر عراك كبير، بلعنات المثقفين ضد هذه الحقبة السيئة، ضد متعنا، ضد حضارتنا، ضد عالمنا الجميل. لقد بدأت هذه المزايدات غير المحتملة والمبالغات المرعبة حول الهدم والتلوث الذي أحدثناه، بواسطة طعم الكسب والربح، من أجل هدم وتخريب بأقصى سرعة ممكنة آثار عالم كان جميلاً. وبأننا جميعاً سنموت إن عاجلاً أم آجلاً. وإن الخطر قائم منذ البدايات الأولى للحياة بما في ذلك البيئة أو المحيط.

للمرة الأولى منذ تكونت وتشكلت منظومتنا الشمسية، لدينا القدرة بفضل علوم الطبيعة والتكنولوجيا والصناعة، أن نفعل شيئاً من أجل البيئة وكل العلماء والتقنيين يعملون في هذا الاتجاه. ومع ذلك فهم مهتمون بهدم وتخريب الطبيعة. في هذا الوقت ومنذ سنوات، فإن بحيرة "زريخ" Zurich العجيبة وبحيرة "ميتشكان

(1) مشروع مارشال: هو المشروع الاقتصادي، لإعادة تعمير أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الذي وضعه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة أركان الجيش الأميركي أثناء الحرب العالمية الثانية ووزير الخارجية الأميركي منذ يناير 1947 والذي أعلنه بنفسه في 5 يونيو 1947.

Michigan" العظيمة والانهار التي تقع عليها "شيكاغو Chicago" قد تم انقاذها من دون تهويل او عراك. ولقد تم حفظ الحياة في هذه البحيرات بفضل تعاون العلم والتكنولوجية والصناعة. انما المؤسسة الاولى من هذا النوع في تاريخ نظامنا الشمسي وهذا منذ ظهور الحياة.

العالم ليس من السهل تسييره. فكل نوع من انواع الحياة وكل صنف من اصناف النباتات وكل نوع من انواع البكتيريات تؤثر على المحيط والبيئة بانواع اخرى. وتأثيرنا نحن قد يكون الاكبر من نوعه، ولكن فيروسا جديدا ووباء جديدا ووباء بكتيريا جديدة، يمكن ان يسحقنا في سنوات او اعوام معدودة.

ليس من السهل الاحتفاظ بمراقبة الطبيعة. والديمقراطية ليست هي ايضا بالشيء الهين. وكما اشرت الى ذلك، فان تشرشل الذي قال بان الديمقراطية هي اسوأ اشكال الحكم باستثناء جميع اشكال الحكم. ولكن ما لم يقله تشرشل بشكل واضح هو ما اريد ان اضيفه وهو: بالنسبة للحكومات الديمقراطية هي النظام الاقل راحة، لان الحكومات مهددة باستمرار بالاقالة. وعليها ان تقدم الحساب لكم ولي. فنحن لجنة الحكم او القضاة، ولكننا قد نتعرض للخطر وذلك عندما نصاب بالافتتان والغواية. انه ما كان يسميه هيغل "Hegel"⁽¹⁾ — "روح العصر" ويشكل خطرا دائما، الا وهو: الايديولوجيات الجديدة او تلك الايديولوجيات التي تظهر على شكل "موضة Mode"، والتي هي دائما غيبية بلا حد، وتعتبر دائما الخاطيء صحيحا حتى عندما يكون الحقيقي بديهي، كل هذا يجعل لجنة الحكم او الحكام

(1) جورج ولهم هيغل: (1770 - 1831) فيلسوف الماني، مؤسس الفلسفة المثالية في العصر الحديث، من اهم اعماله: فينومينولوجيا الروح.

او القضاة او اعضاء لجنة الحكم الذين هم نحن، في حالة من الافتتان.

لقد تعلم هتلر، من اساتذة متحمسين لكل مايؤمنون به الا وهو: ان العالم يسير من طرف الروح الالمانية. وكان هتلر يؤمن بهذا، مثله مثل كثير من الشباب من مختلف الطبقات الفقيرة، هؤلاء الملايين من الشباب الشجعان والذين هم وخلال الحربين الالمانيتين، ماتوا من اجل الهيمنة على اوربا. وهنالك شباب آخر فقير اعدادهم اكثر عددا واكثر شجاعة قد دخلوا معهم في الموت. ولكن هؤلاء الاعداء يكافحون بشجاعة من اجل الحرية والسلم، في حين ان الشباب الالمانى من اجل عظمة وتفوق المانيا، من اجل الامبراطور من اجل الرب الاعظم للحرب من اجل "الفوهرر Führer".

اليوم بامكاننا بل ومن واجبنا ان ننظر الى الحقيقة كما هي. الايديولوجية الالمانية كانت وهما، كما بينها احد اكبر المؤرخين البارزين الالمان فريتز فيشر "Fritz Fischer"⁽¹⁾. لكن اكثر وضوحا: لقد كانت اكدوبة. هذه الايديولوجيات الغريبة على الرغم من سخريتها وسخفها، وعلى الرغم من تواترها وتكرارها الكاذب، الا انها كاذبة. فالغرب كافح من اجل السلام ولقد حققه في اوربا، هذه المنطقة التي كانت دائما مسرحا للحروب القاسية. ولقد تحقق السلام، تقريبا في كل مكان كان فيه للغرب تأثير.

ولكن المثقفين غير المسؤولين، لم يستطيعوا ان يروا الا الشر في عالمنا الغربي. لذا اسسوا الديانة الجديدة التي تعلم، ان العالم ظالم وانه

(1) فريتز فيشر: (1908 - 1999)، مؤرخ الماني، اهتم بتاريخ النازية والحرب العالمية الاولى، من أهم اعماله: اهداف الحرب العالمية الالمانية الامبراطورية (1914 - 1918).

محكوم بالخسارة وآيل الى الضياع. لقد بدؤوا يعلموننا ذلك بكتاب اوزوالد شبنجلر "Oswald Spengler"⁽¹⁾، في كتابه "انحطاط الغرب الغرب". لان هؤلاء المثقفين يريدون ان تكون لهم صفة الجدية والابداع، وان يستطيعوا قول اشياء مخالفة ومعارضة ومناقضة ومضادة للبديهيات. ولقد نجحوا في التعتيم ليس فقط على البديهيات، بل كذلك على الحقيقة الموضوعية.

ولكنني لا اريد ان اقوم بمحاسبة واسعة بوصفنا مثقفين. وانما اريد ان ادعوهم الى الاعتراف بـسؤولياتهم تجاه الانسانية والحقيقة. ان حريتنا تسمح لنا بقول كل شيء. حريتنا تسمح لنا حتى بقذف العالم الحر، وبتصويره على انه عالم فاسد وقبيح وسيء. ان هذا من حقهم، ولكن هذه ليست الحقيقة، وانه لأمر لا اخلاقي ان نبث الاكاذيب، حتى عندما يكون لنا الحق في ذلك. انه ليس فقط لا اخلاقي ولكن غير مسؤول ان نضع في خطر، التوجهات الكبرى⁽²⁾ التي رسمها لنا تشرشل وروزفلت، بطلا الحرب ومشروع مارشال الذي حققوه، وان لاننتقص من قيمتهما وان نقدم الطيب على انه خبيث والجيد على انه سيء.

اريد ان اذكركم اليوم بان الروس بدؤوا يعترفون بعالمنا ويسلمنا، ويقدرّون ان سلما موسعا بشكل معتبر ليس مستحيلا ولا يتوبيا او خيال. انه من واجبنا ان نجند كل طاقاتنا، وننتهي من تعطيل هذه الامكانية من خلال المغالطة.

(1) اوزوالد شبنجلر: (1880 - 1936) مفكر الماني اهتم بفلسفة التاريخ واشتهر بكتابه: انحطاط الغرب.

(2) فضلنا الحديث عن التوجهات الكبرى بدلا من الأقدار الكبرى المنصوص عليها لاننا نعتقد ان السياسات خطط وتوجهات وليست اقدارا.

وفي الاخير، نحن في السماء، في السماء الاولى بطبيعة الحال
ولسنا في السماء السابعة. وجئنا جد متطورة ومكتملة، ويجب علينا
ان لانخط من قيمتها او نقلل من سمعتها وان نفترى على عالمنا الذي
هو احسن العوالم التي وجدت، وخاصة في اوروبا. والحقيقة اننا
مستعدون للاصلاحات القادم، وفي الولايات المتحدة الامريكية اكثر
من أي مكان آخر.

نحن رجال ذوي الارادات الطيبة المشبعة بالتفاني وانكار الذات
والتضحية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان جنودنا قد قدموا
الدليل والشهادة. ان الشروط الاساسية متوفرة لاقامة السلم العالمي.
الا ان هنالك شرط اساسي لازم وهو ان الروس يجب ان يتعاونوا
معنا. واذا ما فعلوا، فانه من الممكن ان نحقق حلم شيرشل وروزفلت
ليس فقط في اوربا ولكن في العالم اجمع.

انه وللمرة الاولى منذ الحرب العالمية الثانية، يبدو ان الروس
مستعدون للتعاون! فـ "سبخاروف Sakharov" المعتزل الكبير
والشجاع، قال لا يجب ان نعول او نتكل او نشق في الديكتاتور
غورباتشوف "Gorbachev" القوي جدا. كما قال ايضا ان الاتحاد
السوفيياتي يمكن ان يكون في حالة تفكك. الا اننا لا نأمل ذلك، لانها
ستؤدي الى معاناة لاحد لها وستؤدي الى اخطار كبيرة على السلم.
ومن الممكن ان تؤدي الى ديكتاتورية عسكرية، ديكتاتورية اكبر
قوة عسكرية (...). برية وبحرية وجوية لم يعرف مثيلا، وهو ما
يلغي كل امل في السلام.

ان جورج سورس "George Soros" الذي يعرف روسيا جيدا،
وان كان اقل من سبخاروف، حلل كل هذه الاخطار في مقال مهم
نشره في مجلة "New York Review of Books" حيث يعتقد ان

روسيا تبحث فعلا عن التعاون مع الغرب. الروس يعرفون ان اللجنة
والجحيم توجد عندنا.

وحتى يكون هذا التعاون ممكنا، يجب ان نكون على وعي الى
اين نحن وصلنا، وما الذي يمكن للحرية ان تسمح به كما يبين ذلك
نموذجنا او مثالنا. ثم بعد ذلك نستطيع، ان نطلب كيف وصلنا وان
نعرض مساعدتنا لروسيا، اذا كانت مستعدة لتفكيك سلاحها.
ولكن علينا ان نتخذ جميع الاحتياطات الضرورية.

هذه الامكانيات المعروضة علينا اليوم، انما تطالبنا، نحن المثقفين،
ان نرى اخيرا الحقيقة الموضوعية ونتوقف عن خلط اللجنة بالجحيم،
كما كنا نفعل في الماضي.

يجب ان نعرف باننا لانعرف شيئا - او تقريبا في الغالب لاشيء -
وان غورباتشوف في نفس الوضعية التي نحن فيها. من اجل ان نقرب
من السلم ولو بخطوة يجب ان نتخلص من الايديولوجيات، وخاصة
تلك المتعلقة بنزع السلاح من جانب واحد، فهي خطيرة جدا على
السلم. يجب ان نتحسس الارضية بحذر مثلما تفعل "السرافات
Chenilles"⁽¹⁾. وان نبحث على الحقيقة بكل تواضع. يجب ان
نتوقف عن لعب دور الانبياء والعارفين بكل شيء. مما يعني انه يجب
علينا ان نتغير.

(1) نوع من انواع الدود وهي دودة الفراش منذ خروجها من البيضة الى ان تتحول
الى طاردة.

هذا الكتاب

لا جدال في أن الفلسفة عالمية وإنسانية بطبيعتها وخلاصة للعقل والجهد البشري، ليس لها من سلطة غير سلطة العقل والبرهان، فكل ما هو عقلي هو فلسفي وإنساني وعالمي ومحلي في الوقت نفسه، لأن الفلسفة تقول بالمظهر والماهية، بالشكل والمحتوى، بالعقل وتمظهراته. ولما كانت كذلك فإنها لا تؤمن بالحدود والحواجز والخصوصيات، لأنها بحث في الحقيقة ونشدان للمعنى وتأسيس للتواصل والحوار واللقاء بين الحضارات والأمم، مهما اختلفت أديانها وعقائدها ونظمها ونحلها ومللها وفرقها ولغاتها.

من هنا سعت الفلسفة قديما وحديثا للتغلب على عقبة اللغة من خلال الترجمة، من مختلف لغات الأمم، وكانت بذلك تجسيدا لنزعة إنسانية مبكرة، ولعل في فلاسفتنا القدماء خير مثال على ذلك، فلقد استعانوا على عقبة اللغة ب مترجمين و شراح من أجل معرفة النصوص الفلسفية، والتعرف على أصناف المناهج والطرق المؤدية إلى الحقيقة، لأن المعرفة الفلسفية كما قلنا معرفة عالمية-كونية تقوم بتعميم التجربة الإنسانية ورفعها إلى مقام المفهوم والمقولة، بحيث تنطبق على كل الأجناس البشرية.

من مقدمة الكتاب

ملتدي مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

ISBN 978-9953-29-419-3



9 789953 294193

منشورات الاختلاف

149 شارع حسيبة بن بو علي

الجزائر العاصمة - الجزائر

البريد الإلكتروني:

editions.elikhthilef@gmail.com



دار العلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com

نيل وفرات. كوم



جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت